راديو

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : راديو
تأليف : مجدي محمد إسماعيل
تصنيف الكتاب : رواية
إخراج : أحمد عبد الحليم
رسم اللوحات : منه أسامة إبراهيم
رقم الإيداع : ٤٤١٦ / ٢٠٢٠
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 69 - 4

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

راديو

رواية

مجدي محمد إسماعيل

ما قبل الإهداء

إلى أبنائي:

مريم، محمد، إسماعيل، فاطمة.

أتمنى لكم واقعا أجمل من واقعنا، بل أجمل من خيالنا وتوقعاتنا وأحلامنا أيضًا.

أحبكم

الإهداء

إلى الرائعة: ميس زينب. أستاذة اللغة العربية.

والى الاعزاء:

عمرو برنس، وليد ماهر، محمد حسن.

تلاميذ المدرسة الإعدادية وليس:

مدرس اللغة الإنجليزية، طبيب أمراض القلب، مهندس الكهرباء.

وإلى تلك الأيام الرائعة، التي كان فيها القلب – مازال – أبيض، والبال رائقا.

الفصل الأول

عودة

كالعادة كان اليوم الأول في اختبارات نهاية العام، في مادة اللغة العربية وما أن فتحت ورقة الأسئلة حتى وقعت عيناي على السؤال الأول:

التعبير: إجباري:

«تاريخ مصر يحكي عن ملحمة أسطورية خالدة، اكتب فيما لايقل عن عشرين سطراً، ما تمثله لك مصر، وما شعرته حينما قرأت تلك العبارة.

ابتسمت، وقررت أن أكتب قصة علاقتي الخاصة بمصر، اعتدلت في جلستي واختلطت المشاعر بداخلي، قررت لأول مرة ألا أنفذ تعليمات ميس زينب، وألا أبدأ موضوع تعبير تقليديا، بل كنت أود أن أنقل مشاعري إلى الورق فبدأت كتابة الموضوع.

***

وما أن فتحت ورقة الأسئلة حتى وقعت
عيناي على السؤال الأول : التعبير: إجباري:

شحمتا أذني لهما طبع غريب، فهما تؤلمانني عند سماعي خبرًا سيئًا، والليلة باتا يؤلمانني بشدة حينما سمعت والديَّ - خلسةً - وهما يتناقشان في استعدادت عودتنا أنا ووالدتي وأختي الصغرى كي نعيش في مصر.

كان الأمر مباغتًا، بل لم يكن له أي مقدمات بالنسبة لي.

سمعت حديثهما عن أوضاع العمالة الأجنبية المتردية، واتجاه الحكومة لجعل الوظائف قاصرة فقط على مواطني المملكة.

على الرغم من أنني قد ولدت بالمملكة، وعلى الرغم من تلك الفترة الطويلة التي عشتها بها، إلا أنني كنت دائمًا أستشعر أنني غريب ولست من أبناء البلد.

سمعت حديثهما أيضًا عن ارتفاع تكلفة الإقامة للأجانب، وصعوبة المعيشة في الفترة الأخيرة بشكل غير مسبوق من قبل.

سمعت بكاء والدتي ونحيبها، وتمنيت أن يكون قرار أبي النهائي هو انتقالنا جميعًا - كما حاولت أمي باكية أن تقترح - ذلك الأمر الذي أكد أبي استحالته

في الوقت الراهن، وإن كان أيضًا يتمنى ذلك.

وككل المصائب، تم الأمر بمنتهى السرعة والسلاسة، الاستعدادات كلها تمت على عجل، تجهيز أغراضنا، استخراج أوراق وبيانات نجاحي من المدرسة في الصفين الأول والثاني في المرحلة الإعدادية والتحاقي بالسنة الثالثة، حجز تذاكر الطيران، وداع أبي الحار لنا، رحلة الطيران الكئيبة والتي بدأت في منتصف ليل العاشر من أكتوبر تمامًا.

لاحظت ابتلال البرقع الذي ترتديه والدتي بدموعها، والتي حاولت جاهدة ألا تظهرها أمامي، إلا أنني كنت أشعر وأعي تمامًا بما يبكيها وأشاطرها ذلك الإحساس السيء.

لم أتناول لقمة منذ حطت قدماي على سطح الطائرة، كنت أرى مضيفات الطائرة، وكأنهن يقدمن القهوة في مأتم طائر يعبر البحر الأحمر في الاتجاه الغربي.

هبوط الطائرة الخشن على مدرج الهبوط بمطار القاهرة الدولي، ضابط الجوازات الصارم، ثم صراع قائدي سيارات الأجرة كتماسيح نيلية جائعة للظفر

بفريستها، أو لتوصيلنا لوجهتنا بصيغة أخرى، وشحمتا أذني اللتان - ولعدة أيام متتالية - لازالتا تؤلماني، وأخيرًا وجه عمتي هديل المرحب.

ذلك الوجه الذي كان كاليابسة بالنسبة لغريق في وسط البحر، وهو كان الشئ الوحيد الذي أخرجني من حالتي النفسية السيئة تلك.

لأول مرة منذ أيام أبكي بكاءً حارًا وأنا في حضن عمتي، ومن ثم لمحت لافتة كبيرة حين رفعت عينيَّ لأعلى بينما لازلت قابعًا في حضنها، مكتوب عليها بعبارات زخرفية الآية الكريمة «ادخلوها بسلام آمنين».

***

كانت عمتي، في اليوم السابق لقدومنا، قد أحضرت عاملة لتنظيف شقتنا، تلك الشقة التي اشتراها والدي في حي كوبري القبة منذ فترة، والتي لم نكن نستخدمها إلا في إجازات الصيف التي كنا نحضر فيها إلى مصر ولفترة وجيزة، ثم تظل مغلقة باقي العام.

مازلت أذكر ذلك المدخل الرخامي البارد لتلك البناية الشاهقة، والتي يقع أسفلها محل كبير لبيع الفاكهة.

لما وصلنا إلى العمارة، قامت عمتي هديل بإيقاف سيارتها أمام المحل، فكاد صاحبه أن يمنعها من ذلك لأن السيارة قد أغلقت باب المحل تقريبًا أو كادت، ثم ما لبث أن رأى قائدتها فصمت، فسلمت عليه عمتي، ثم قالت له متفهمة:

- لن اتأخر كثيرًا يا معلم.

أجابها سريعًا:

- خذي وقتك ياأستاذة.

فابتسمت وقالت له:

- هل لديك موز طازج؟

قال وهو يشير إلى طاولة تراص عليها التفاح بشكل جميل.

- نعم بالطبع، كما أريدك أيضًا أن تتذوقي ذلك التفاح الأحمر؛ فهو في منتهى الروعة، تفاح أحمر ممتاز قادم للتو من شيلي.

بابتسامة عذبه قالت له عمتي مداعبة:

- وهل تعرف اين هي شيلي يامعلم؟

أجابها بفراسة انتبهت لها، وبابتسامة كشفت عن أسنان صبغها التدخين بعدة ألوان متباينة:

- شيلي توجد حيث يزرعون التفاح الأحمر الشهي ياأستاذتنا.

ضحكت عمتي ثم قالت:

- إذا كان الأمر كذلك فلترسل لمازن وأمه، اثنين كيلو من كل صنف مع سيد، وكيلو تفاح شيلي لي.

- حالا، بمجرد أن تصلوا إلى الشقة ياأستاذة.

أغلقت عمتي سيارتها فنزلنا منها وترجلنا للمدخل، استقبلنا مدخل البناية استقبالًا باردًا حيث دلفنا، ثم تقيأ المصعد حمولته المكونة من رجل وامرأة في منتصف العمر، بعد أن ضغطنا زر استدعائه، ثم صعد بنا – في ملل - إلى الدور الرابع حيث شقتنا.

قابلنا البرد و الصمت مرحبين.

وبمجرد دخولنا الشقة أخذت عمتي تخبر والدتي عن أماكن الأدوات ومستلزمات المعيشة وهي تكتب في ورقه بيدها الأشياء التي تحتاجها والدتي.

وبعد برهة من الوقت جاء طفل في نفس عمري تقريبًا يرتدي جلبابا بلديا رماديا كالح اللون ويحمل عدة شنط بلاستيكية بها الفاكهة التي طلبتها عمتي لنا.

تناولت عمتي هديل الورقة وكيس التفاح وأعطت والدتي قلمها، ثم ودعتنا وانصرفت، حاولت والدتي جعلها تنتظر قليلا كي نتناول معنا طعام الإفطار، ولكنها أخبرتها أن عليها الذهاب سريعًا للحاق العمل، حيث إنها تأخرت كثيرًا.

نظرت من الشباك فوجدت عمتي تقرض ذلك المعلم نقوده ثم ركبت سيارتها وانطلقت سريعًا.

***

الفصل الثاني

المدرسة

لسبب ما - لم أعه - وقتها، كان بعض تلاميذ المدرسة التي التحقت بها يتعاملون معي ببعض التحفظ، فيما عدا تلميذين بفصل ١١/٣ وهو الفصل الذي به الطلبة راسبو العام الماضي، حيث كانا دائمي التحرش بي، وكانا يتعاملان معي بمنتهى العنف، كانا طوال القامة بشكل ملحوظ على عكس باقي تلاميذ المدرسة، لتلك الدرجة التي ظهرا فيها كأحد مدرسي المدرسة، وليس مجرد طلبة، مما كان يضع الرهبة دائمًا في قلوب باقي التلاميذ تجاههم.

أحدهما اسمه يوسف وهو الأقصر بالمقارنة بالآخر، بينما أطولهما يدعى ربيعا.

أنا لم أكن أخشاهم، حتى إذا ما تعامل معي أحدهما بعنف كنت أبادله العنف ذاته، ولكن المشكلة أنهما لم يتفارقا أبدا، وكانا يتعاملان مع الجميع كعصابة مكونة من فردين، فإذا ما ضربت أحدهما يتبارى الآخر في مساعدته، فتكون الغلبة لهما حيث «الكثرة دائمًا ما تغلب الشجاعة».

وكنت حينها مازلت لا أجيد التحدث باللهجة المصرية بطلاقة، حيث كنت - تعودا - أنطق بعض الكلمات بلهجه خليجية تجعل التلاميذ يسخرون مني.

بينما كان بعض التلاميذ يوجهون لي نظرات حقد كما عرفت فيما بعد، بسبب أن أغراضي الدراسية مرتبة ومنظمة على عكس غالبية تلاميذ المدرسة.

قد كان قرار والدي، في تلك الليلة الكئيبة السابقة لسفرنا، إلحاقي بمدرسة المستقبل التجريبية للغات، وهي مدرسة حكومية ولكن بمصروفات دراسية مرتفعة نسبيًا عن باقي المدارس الحكومية العادية، نوع آخر من أنواع التعليم المتنوع الموجود

بجمهورية مصر العربية، ولسبب ما لا أعرفه كان أبي قد رفض اقتراح عمتي هديل لإلحاقي بمدرسة خاصة من تلك المنتشرة في ربوع الجمهورية.

سيرًا على الأقدام كانت طريقتي اليومية للذهاب إلى المدرسة، عابرًا كوبري المشاة الموجود بمحطة مترو أنفاق كوبري القبة، مرورا بقصر القبة الجمهوري.

مسافة لا بأس بها من المشي من وإلى المنزل، لم أكن أستخدم دراجتي الهوائية لصعوبة حملها والصعود بها من على سلم المشاة.

وكنت أنتظر فترة طويلة على الرصيف قبل المرور، وكما كنت لا أستطيع القيام بتلك الحركات الأكروباتية التي يفعلها أقراني لكي يمروا من وإلى المدرسة.

كان بجوار مدرستنا، وكعلامة مميزة لها، مقلب كبير جدًّا للقمامة يخفي جزءا كبيرا من عبارة:

(مدرستي جميلة، نظيفة، متطورة)، تلك العبارة المكتوبة باللون الأخضر على سور المدرسة، والتي قرأتها كاملة مرة واحدة في يوم من تلك الأيام الكئيبة التي يقوم فيها عاملو النظافة بالحي برفع القمامة.

العبء النفسي عليَّ كان هائلًا، فدائمًا، وبسبب عدم احترافي لعبور الطريق وسط السيارات المسرعة، ولعدم وجود طريق مخصص للمشاة، كنت

أصل إلى المدرسة متأخرًا بعد صعود التلاميذ للفصول من أرض الطابور، مما قد يعرضني للعقاب أحيانًا.

بالإضافة إلى الطريقة العنيفة التي يتعامل بها الكثير من التلاميذ معي، وبالإضافة أيضًا للرائحة الخانقة لتلك القمامة التي كانت نادرًا ما يتم رفعها، إلا في يوم واحد في الشهر والذي تكتمل فيه مأساة الرائحة.

تضافرت الأسباب كلها كي أكره المدرسة كالجحيم.

كنت أبكي ليلا، وكنت قد امتنعت زاهدًا عن تناول الطعام، بل لم يكن لديَّ أي رغبة أو شهية لتناول الطعام، الأمر الذي لاحظته والدتي وسألتني عنه كثيرًا وكنت أخبرها برغبتي في العودة إلى المملكة وأنني قد سئمت الحياة في مصر.

كانت تقول لي إن عليَّ أن أتأقلم، فالظروف التي قد أجبرتنا على الرحيل وترك والدي يعمل هناك

حتى يتمكن من توفير الحياة اللائقة لنا، قد يغيرها الله بين عشية وضحاها.

أمي سيدة مؤمنة طيبة ترجع الأمر كله لله، ودائمًا ما كانت تربط تصرفاتها وكل ما تفعله إلى الله، وكانت دائمًا ما تقول لي: راقب أفعالك وقسها دائمًا على طاعة الله، فإن كان في الأمر طاعة له فافعله، وإن كان لا فاعرض عنه تمامًا، وكنت أحب أمي كثيرا، ولكني كنت أكره غياب أبي أكثر.

كما كنت أكره كل سبب في ابتعاد أبي عنا، حتى لو كان غيابه ذلك جعل لنا وضعا ماديا جيدا، وإن كان أيضًا ذلك الوضع المادي الجيد سببًا في كل هذا التنمر الذي أواجهه في تعاملات أقراني بالمدرسة.

ولأول مرة في حياتي يصبح استيقاظي الصباحي أمرًا مرهقاً، كما أصبح ذهابي للمدرسة تمامًا كمن يتجه لتنفيذ عقوبة السجن، أصبحت أكره المدرسة وأكره أقراني، ومما زاد الطين بلة، أن مدرس اللغة العربية الأستاذ علاء كان دائمًا ما يقوم بسؤالنا

أسئلة صعبة ويعاقبنا بالضرب والسخرية والأهانة أحيانًا، لأننا لم نستطيع الإجابة على أسئلته.

وعلى الرغم من أنه لم يكن يجيد شرح الدروس، فقد كان دائم الشكوى والسخرية من سوء مستوانا الدراسي، ودائما ما يخبرنا أن كل طلاب الفصل يحتاجون للالتحاق بدروس خصوصية يقوم هو بتدرسيها للارتقاء بمستوانا الدراسي.

نادرًا ما كان يحسن شرح الدروس بالفصل، وكان يختلق أي حدث كي يعاقبنا، ولم يسلم من أذاه إلا عدة تلاميذ لا يتخطى عددهم أصابع اليدين مجتمعين.

كنت أستشعر أن الأستاذ علاء أقوى من مدير المدرسة نفسه، فكان المدير يخشاه لسبب لا أعلمه.

اعتدت أن استذكردروس اللغة العربية- فقط- للفرار من عقاب الأستاذ علاء، كما خصم وجوده كمدرس من رصيد تلك المادة الهامة الشحيح أصلًا لديَّ، وكان التلاميذ يخافونه لقسوته وغلظته وطريقته السيئة في التعامل معنا.

وباستثناء تلك العصبة من التلاميذ والذين كان مستواهم الدراسي سيئًا جدًّا في كل المواد

الدراسية الأخرى، إلا أنهم كانوا هم فقط من يستطيعون الإجابة على أسئلة الأستاذ علاء، ذلك الأمر الذي كنت أستشعر غرابته بشدة في بداية الأمر، وأستشعر أن هناك في الأمر خدعة ما، إلى أن قال لي ذات مرة أحد التلاميذ ويدعى أحمد عصام بنفاذ صبر:

- إنه يقوم بتدريبهم على تلك الأسئلة مسبقًا في درسه الخصوصي الذي يحضره عنده أولئك الأوغاد.

كانت تلك هي أجابة السؤال الذي أرقني طوال الفترة الماضية، فهؤلاء التلاميذ هم الأسوأ مستوى في الفصل إلا في مادة الأستاذ علاء.

فأضاف أحمد - والذي كان شديد حمرة الوجه ذا شعر أشقر ناعم يفرقه من منتصف الرأس ليتدلى على جبينه - معرفًا نفسه ومبتسمًا:

- اسمي أحمد عصام.

أجبته بلا فضول:

- أعرفك.

مبتسمًا قال:

- وأنا أيضًا أعرفك ويعجبني اسمك، مازن، كثيرًا وأتمنى أن نصبح أصدقاء.

ابتسمت أيضًا وانتابتني لحظة جرأة لم أعهدها في نفسي من قبل وقلت:

- نحن أصدقاء بالفعل، واسمك جميل أيضًا.

ضاحكًا أضفت:

- لقد أجبت اليوم عن سؤال يؤرقني منذ فترة.

هنا استدار الأستاذ علاء وقد كان يكتب على السبورة ثم قال بغلظة:

- أيًّا من كان ذلك الأحمق الذي يتحدث، فلينته فورًا.

فلم ينبس أحدنا ببنت شفة على الفور.

نظرت من الشباك الملاصق لطاولتي إلى ملعب الكرة – معشوقتي الأولى - بالمدرسة، ثم تنقلت بنظري للبنايتين المكونتين لفصول المدرسة، بنايتين كبيرتين ملتصقتين ببعضهما، وكل منهما أربعة طوابق مكونة لفصول كل صف من الصفوف

الدراسية، شعرت بشئ من الحقد على تلك الحمائم التي أخذت تضرب بأجنحتها الهواء مارة من أمام الشباك حيث أنظر، فعلى الرغم من أنها بلا عقل إلا أنها تمتلك حريتها، وأيضا تستطيع التحليق في الهواء.

تمنيت أن يكون عندي جناحان مثلها لأحلق بهما حتى أصل إلى أبي فقد اشتقت له كثيرا.

ولما انتهت حصة اللغة العربية كان كالعادة مدرس الرياضيات، الماث، كما يطلقون عليها في تلك المدرسة، غائبًا.

يوميا كان هناك مدرس أو مدرسة لمادة مختلفة يتغيب، ولذلك كانت هناك أوقات فراغ طويلة، كان يقضيها التلاميذ في العراك، أو التحرش بي، وكنت أتجاهلهم أغلب الأوقات، بينما أمارس هوايتي الأخرى، والتي كنت أعشقها بجانب كرة القدم، وهي القراءة.

كنت أعشق أدب الرحلات وفي كل نهار كنت أحضر معي كتابًا من مكتبة أبي العامرة بروايات مختلفة من الأدب العالمي المترجم، والتي

كانت تنشر ضمن مشروع ثقافي شهير كان منتشرًا في التسعينيات من القرن الماضي، وهو مشروع مكتبة الأسرة، وتحت عنوان القراءة للجميع.

وقد كنت في بعض الأحيان أحضر معي روايتين تحسبًا لغياب عدد أكبر من المدرسين.

قرأت رواية كوميدية اسمها ثلاثة رجال في قارب لروائي إنجليزي يدعى جيروم.ك.جيروم.

تعجبت لتكرارهم الأسماء مثلما نفعل أحيانًا، فلقد كان في فصلنا تلميذ يدعى المليجي إبراهيم المليجي ابتسمت للمفارقة، واكملت الرواية والتي كانت تحكي عن رحلة نهرية في قارب على نهر التايمز بإنجلترا.

كما قرأت رواية جول فيرن الخيالية، رحلة إلى مركز الأرض.

وتمنيت امتلاك آلة الزمن تلك كي أعود بها إلى الماضي حيث كانت أسرتنا تعيش معًا، بينما كنت أقرأ رواية هربرت. جورج. ويلز الشهيرة.

كانت ميس منى مدرسة العلوم تحبني كثيرًا، وكانت حصة العلوم هي الحصة الدراسية الوحيدة التي كنت أفضلها في المدرسة، وأشعر أنني أنتمي لها بشكل أو بآخر.

كنا نتبادل أطراف الحديث كثيرًا أنا وميس منى، وكانت مثلي تحب القراءة، حيث كانت قارئة نهمة تعشق الروايات، لها تلك الطريقه النقدية اللاذعة، وكان لها لازمة كلامية ترددها كثيرًا بمبرر وأحيانًا بلا مبرر وهي «ظننت هذا واضحًا».

وفي يوم أخبرتني أنها أحضرت لي هدية، لكن يتوجب عليَّ إعادتها إليها بمجرد الانتهاء من قراءتها، ثم أعطتني كتيبًا صغيرًا أخضر اللون، كتب على غلافة اسم الرواية «الوباء» لسلسلة من روايات مصرية للجيب، اسمها سافاري.

وفي الجانب الأيسر صورة شاب له لحية تحيط بفمه ويرتدي العوينات.

وكتب على الغلاف:

مذكرات طبيب يجاهد كي يظل حيا ويظل طبيبا، الجملة التي لم أستسغها في أول الأمر، وكتب اسم المؤلف د. أحمد خالد توفيق.

ميس منى كانت بيضاء نحيفة، ترتدي عوينات رقيقة بلا إطار، بشرتها رقيقة لدرجة أن شرايينها الزرقاء تظهر على وجنتيها، وكان لعينيها نظرة حازمة حزينة مرهقة، لم تكن عيناها تلمعان إلا عند شرح دروس العلوم، أو عند التحدث عن الأديب الراحل والتي كانت تطلق علية لفظة العرَّاب.

ابتسمت ميس منى وقالت:

- أتمنى ألا تشغلك الروايات تلك عن الاستذكار.

و فيما بعد عرفت أن للدكتورالراحل ثلاثة سلاسل وعدة روايات، ومنذ ذلك الحين انغمست تماما في عالم الراحل د. أحمد خالد توفيق الرائع.

ألحقتني عمتي هديل بأكاديمية كرة قدم لنادٍ شهير، كنت أعشق اللعب كرأس حربة وأعشق إحراز الأهداف، وكان مدربونا بالأكاديمية يعرفون

ذلك جيدًا، وكانوا دائمي التحفيز لي ولزملائي بمواصلة بذل المجهود في التدريب، كانت أجواء رائعة أمضيتها أنا وزملائي بالأكاديمية، وكانت الفترة التدريبية الأسبوعية تلك هي ماتهون عليَّ باقي الأيام، كنت أحبهم أكثر من أقراني بتلك المدرسة البائسة، وكنت أبذل قصارى جهدي للتمكن من الالتحاق بفريق الأشبال بهذا النادي، منتظراً فترة التوقف للانضمام بالفريق.

***

الفصل الثالث

منزل جدي

كنت أستشعر الرهبة كلما اقتربنا من يوم الاثنين، ذلك اليوم الذي قررت عمتي هديل فيه اصطحابي للذهاب - لأول مرة - إلى منزل جدي رحمه الله، في منطقة الظاهر.

استعددت لتلك الرحلة قبلها بعدة أيام عن طريق جمع المعلومات عن ذلك الحي، تلك هي طريقتي أن اجمع معلومات عن أي شئ أو أي أمر مقدم على فعله، و كنت قد قرأت على الإنترنت أن حي الظاهر ترجع تسميته بهذا الاسم نسبة إلى الملك الظاهر بيبرس أحد حكام مصر من المماليك، والذي حكم مصر بعد معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م.

حي الظاهر كان يقطنه اليهود، والذي مازالت به معبد يهودي قائم حتى الآن، بالإضافة للكثير من الكنائس، ذلك بجانب العلامة الكبرى المميزة للمنطقة وهي مسجد الظاهر بيبرس الكبير.

وجود رموز للديانات السماوية الثلاث أضفى على المنطقة سحرا فوق سحرها الطبيعي.

منذ أن توفى جدي، ظل ذلك المنزل مغلقًا لفترة كبيرة قبل زواج أبي وبعد سفره للعمل بالخارج.

عمتي هديل عادت للاهتمام بذلك المنزل بعد طلاقها من زوجها الأخير.

قد كان جل كلام والدي معي عن فترة طفولته بمنطقة الظاهر، والتي كان يستخدم حرف الضاد في نطقها عمدًا و لسبب لا أفهمه يقولها «الضاهر»، ذلك الأمر الذي كنت أستغربه بشدة، ثم ما لبثت أن تأقلمت معه منذ عودتي وحياتي في مصر وممارستي للهجة المصرية، واكتشفت أن حياتك في مكان ما تختلف كثيرًا جدًّا عن معايشة تلك الحياة في الروايات أو القصص أو حتى عن طريق الحكي.

ابتسمت حينما تذكرت دهشتي حينما شاهدت كنيسة لأول مرة ونحن قادمون من المطار ذات مرة في إحدى الإجازات السنوية مع والديَّ، حينما كنت صغيرا، وسؤالي المندهش لهما عن غرابة مظهر ذلك المسجد! ضحك أبي كثيرًا حتى دمعت عيناه، وقال لي أن هذا المبنى هو دار العبادة المسيحية ويسمى كنيسة. كنت لم أر كنيسة ابدًا في حياتي من قبل!

وفي نهاية يوم الاثنين الدراسي، مرت عمتي هديل لتأخذني من المدرسة بسيارتها وانطلقنا في شارع رمسيس متجهين إلى حي الظاهر.

لم أصمت لحظة وعمتي تقود السيارة وتقلّنا إلى منزل جدي، كنت أحتاج بشدة إلى التحدث معها حيث كنت أحتاج للكلام مع شخص أعي تماما أنه يحبني.

ليس لعمتي هديل أبناء، كانت دائما تشعرني أنها أم ثانية لي، وكنت قد سألتها ذات مرة لماذا تم طلاقها من عمو هاشم؛ حيث كنت أحبه كثيرًا وكنا نلعب معًا في إجازاتنا السابقة.

ذكرت عمتي أشياء عن حاجته للولد، وأنه يريد أن يكون أبًا، الأمر التي لن تستطيع إعطاءه إياه، وذكرت أشياء لم أعها جيدًا، عن عدم احتفاظ رحمها بالأجنة، وعن رغبة عمو هاشم في زواج آخر، ورفض عمتي هديل لذلك.

تألمت كثيرًا لعمتي، وسألت الله أن يرزقها بالولد يوما ما.

ما أن انحرفت عمتي بالسيارة يمينا في شارع جانبي ضيق والذي في نهايته فوجئت ببناية رائعة شديدة الجمال غير ظاهرة جيدا للعيان، وسط ميدان صغير تحيط به العمارات القبيحة من كل جانب، أخبرتني عمتي دون أن أسألها إنه يسمى قصر السكاكيني باشا، أو قصر السكاكيني اختصارًا..

لم أع جيدا الطريق لبيت جدي، إلى أن توقفت السيارة، حيث كانت كلتا عينيَّ معلقتين بذلك القصر الجميل، والذي كان قريبًا جدًّا من بيت جدي.

وصلنا للبيت سريعا، وحين نظرت جهة اليمين وجدت منزلا قديما مغلقا، وعلى بابه الحديدي قد شغلت تلك النجمة الموجودة على علم إسرائيل،

امتقع وجهي حين رأيتها لدرجة أنني لم أسأل عمتي عن ذلك المنزل.

ترجلنا نازلين من السيارة، ثم عالجت عمتي ذلك القفل الصدئ والذي يرتبط بسلسلة غليظة حديدية صدئة أيضًا، والمُغلقة لباب حديدي كبير عليه رسومات مشغولة بالحديد يظهر عليها عبق التاريخ واضحًا جليًا.

وما إن انفتح الباب حتى أصدر صريرًا مزعجًا وتوارى - سريعًا - برص كبير الحجم ثم غاب في أحد الشقوق التي صنعها الزمن في الحجارة الكبيرة المكونة للسور القصير المحيط بالمنزل.

دلفنا من الباب إلى حديقة غير معتنى بها وممتلئة بأعشاب غريبة الشكل، وكانت الحديقة بها الكثير من القمامة وعظام الحيوانات الملقاة بإهمال هنا وهناك.

تبينت سبب ما أطلقتها عمتي بصوت خافت بينما كانت تفتح الباب الخشبي الداخلي المؤدي للمنزل، كنت قد عهدت تلك الطريقة العصبية التي تتعامل بها عمتي - أحيانا - مع الأشياء والأشخاص

المحيطة بها والتي لم أجد لها تفسيرا إلا أن أعصاب عمتي مرهقة بسبب القيادة.

وما أن فتحت عمتي الباب حتى تغير المنظر تمامًا، فعلى الرغم من التراب الذي يغطي كل شئ بالداخل، إلا أنني كنت في منتهى الانبهار بهذا الأثاث الراقي؛ الصالون المذهب والمغطى بملاءات بالية، والذي كان يشغل حيزا من ردهة واسعة، على أحد جانبيها يوجد كونصول به مرآة كبيرة الحجم عكست صورة مضحكة مكسوة بالتراب لي ولعمتي.

لم يكن ذاك الكونصول أو ذلك الكرسي الهزاز هما ما أثار انتباهي، بل كان ذلك الصندوق الخشبي الكبير المعلق على رف حديدي مشغول بطريقة الفورجية؛ كان صندوقًا خشبيًا مربعًا وبه من الأمام قماش منسوج على هيئة خلية النحل، وبأقصى اليسار لمبة زجاجية ضخمة، وبه مؤشر جانبي دوارغريب الشكل، نظرت له منبهراً من روعة مظهره:

- أأعجبك شكل الراديو؟

كان ذلك هو صوت عمتي، الذي أخرجني من تأملي في ذلك الراديو غريب الشكل، فقلت مندهشًا:

- راديو؟

مبتسمة قالت:

- نعم راديو.

ثم أضافت وهي تتنهد:

- كان والدي دائمًا ما يستمع له قبل ذهابه للعمل كل يوم.

كان يشغله بمجرد استيقاظة من النوم لصلاة الفجر، ويتركه ساعة كاملة موصولا بالكهرباء حتى يعمل، فهذا الراديو من تلك الحقبة التي سبقت اختراع الترانزستور، بل هو عبارة عن لمبات تأخذ وقتًا طويلًا حتى تسخن وتجعل موالف الراديو يعمل لاستقبال بعض ترددات الموجات.

ثم أضافت، وقد ظهرت نظرة حزن على عينيها،:

- كان والدي يحب ذلك الراديو كثيرًا، فقد ورثه عن أبيه، وكان دائم التفاخر به، وعلى الرغم

من التطور الحادث في تقنية الراديوهات في تلك الفترة إلا أن جدك كان يصر على استعماله، وحتى عندما ابتاع أنواعا أخرى مختلفة لي ولوالدك.

تعلقت عيناي بذلك الراديو وشعرت أني آلفه بشكل شخصي، أردت أن أشغله، فطلبت الإذن من عمتي أن أضع فيشته في قابس الكهرباء، فوافقت ففعلت، وكما توقعت أضاءت اللمبة بضوء أخضر ولكن لم يصدر منه أي صوت!

فابتسمت عمتي، ولمدة ساعتين بعد مجئ السيدة التي ستساعدنا في تنظيف المنزل والحديقة، وزراعة بعض النباتات التي أحضرتها عمتي هديل وريها ومحاولة ملأها بالتربة الجديدة التي زرعناها فيها.

وبعد أن انتهينا كان التراب يغطي ملابسنا ووجهينا، فأمرتني عمتي أن أدخل دورة المياه لتنظيف وجهي وملابسي، حانت مني نظرة لمرآة الكونصول الحديدي فابتسمت من شكلي والتراب الذي كان يغطي شعري ورموشي، ثم حانت مني نظرة إلى الراديو حيث كانت اللمبة لازالت خضراء، ولم يصدر عنه أي صوت أيضًا.

وبعدما فرغتُ من تنظيف ملابسي شعرتُ بشحمتي أذني تؤلمانني مرة أخرى ولما خرجت، قالت لي عمتي هديل وبعد أن أقرضت نقودًا لتلك السيدة:

- ستكون مهمتك يابطل خلال الأسبوعين القادمين هي أن تحضر هنا وتقوم بري تلك النباتات التي زرعناها، يومًا بعد يوم وذلك لسفري في رحلة عمل مفاجئة بعد يومين.

شعرت بغصة في حلقي وقلت لها:

- ألا تستطيعين إرجاء تلك الرحلة لوقت لاحق ياعمتي؟

زفرت قائلة:

- ليتني أستطيع، فالنباتات تحتاج لعناية في تلك الفترة، سأسافر رغمًا عني؛ فالعمل لا يرحم ولكني اعتمد عليك، أنت رجلنا في غياب أبيك، حفظك الله.

أردت أن أقول لها إنني أفتقد أبي بشدة وهاهي تذهب هي الأخرى، ولكني أعرضت عن الكلام، فاحتضنتي وقالت باسمة:

- اسبوعان سيمران سريعًا، وأعود إن شاء الله.

قلت مجبرًا ولازالت شحمتي أذني تؤلمانني:

- أتمنى لك السلامة ياعمتي.

وألقيت نظرة أخيرة مناشدة لذلك الراديو، ولكن شيئًا لم يتغير.

***

الفصل الرابع

أحداث جيدة قليلة

في الفترة السابقة كانت حالة قيادتي للدراجة الهوائية تتحسن، أنا أستطيع قيادتها بمهارة عالية بطبيعة الحال، ولكن المشكلة كانت في عدم وجود طريق مخصص للدراجات هنا، كما كان الزحام المروري الرهيب يزيد الأمور سوءًا، فلم أعتد تلك الاختناقات المرورية من قبل..

مرت الأيام على وتيرتها، سافرت عمتي هديل للخارج في رحلة عمل، فألقي على عاتقي مسئولية العناية بنباتات حديقة بيت جدي، ونظافة البيت نفسه، الأمر الذي كنت أحبه و أتمنى انقضاء وقت الدراسة سريعًا في أيام السبت والثلاثاء والخميس، وهي الأيام التي لم يكن لدي تدريب كرة قدم في الأكاديمية.

كانت تلك الساعات التي أقضيها في التدريب، بالإضافة لتلك التي أقضيها في بيت جدي هي ما تجعلني أستطيع أن أتحمل أجواء المدرسة الكئيبة.

كنت أتنقل بدراجتي من شقتنا بمنطقة حدائق القبة، والتي تقع خلف القصر الجمهوري إلى بيت جدي بالظاهر.

ما أن أصل إلى البيت وأقوم بفتح الباب انطلق سريعًا إلى الراديو وأوصل فيشته بقابس الكهرباء فتضئ لمبته بلونها الأخضر اللامبالي، وأنتظر إلى أن يعمل، الأمر الذي لم يحدث أبدا، وكنت لاإراديًا أظل أنظر له برهة، ثم أتحول لري تلك النباتات، وقد أقوم أحيانا بتنظيف أرضية الصالون من الغبار.

كنت أنتهي من ذلك العمل سريعًا، ثم أجلس أنتظر أي إشارة تظهر من ذلك الراديو.

أصلي العصر في بيت جدي، وأشرع في قراءة عدد آخر من إحدى سلاسل الروايات، كنزي الصغير الذي اكتشفته، والفضل يعود لميس منى العزيزة، وقبل أن يقترب أذان المغرب، أفصل

فيشة الراديو، والذي كان يقابلني بالصمت الدائم، من قابس الكهرباء ثم أستقل دراجتي، اتجه لقصر السكاكيني باشا، أدور حوله دورة أو دورتين ثم انطلق إلى المنزل.

وبذلك تنتهي الفقرة اللطيفة في يومي، كنت بمجرد تذكري أنني سأذهب لتلك المدرسة في اليوم التالي، تعاودني تلك الغصة في حلقي وذلك الانقباض في قلبي في كل ليلة, بينما أكون عائدًا للمنزل في تلك الليالي الشتوية الكئيبة التي لها رائحة الجوافة، بينما تلفحني حرارة أفران أرغفة الفينو الساخنة عند مروري بجوارها.

ما إن وصلت المنزل وفتحت باب الشقة حتى وجدت والدتي تصلي المغرب، بينما أختي نسرين لازالت، كما تركتها، تلعب بتلك المكعبات التي أحضرها لها والدي من ذلك المول الشهير في المملكة، والذي كان وجهتنا في أغلب خروجاتنا هناك.

وضعت دراجتي بمدخل الشقة، وما أن انتهت والدتي من الصلاة حتى قالت متسائلة:

- هل أحضر لك الطعام الآن يامازن؟

زفرت قائلا:

- كلا ياأمي، أنا لا أريد أن آكل.

- وهل ستظل هكذا كثيراً؟! لقد فقدت الكثير من وزنك، لو شاهدك أحد أصدقائك القدامى فلن يعرفك.

وكأنها قد ضغطت على زر البكاء لدي، فانفجرت الدموع نازلة من عينيَّ، الأمر الذي جعل أختي الصغرى تترك ما تفعله وتأتي إليَّ وأخذت تحتضنني وتقول بلهجة طفولية جميلة:

- مش تعيط «ازن».

هي تقصد أن تناديني باسمي، فابتسمت رغمًا عني لطريقتها الطفولية الحنونة، وعلى الرغم من تلك الغصة التي لم تفارقني، احتضنت أختي الصغرى فقالت أمي دامعة:

- ماذا ألَمَّ بك يامازن، أنا لم أرك حزينا هكذا يابني؟!

قلت لها، وأنا أركل الأرض بقدمي،:

- السبب في المدرسة ياأماه، أنا أكره تلك المدرسة بشدة، الطلبة والمدرسين والطريق وكل شئ.

قالت دامعة:

- هون عليك ياصغيري، سنتحدث في ذلك مع والدك وسنحاول إيجاد حل ما.

قلت لها، والدموع تنهمر من عيني،:

- أنا أريد العودة، وأريد أبي بشدة، فقد اشتقت له كثيرًا، أنا لا أريد أن أعيش ها هنا ياأمي، الشئ الوحيد الذي يهون عليَّ قليلا هو بيت جدي، وعمتي هديل، والتي منذ أن سافرت وأنا في ضيق شديد.

كانت تبكي هي الأخرى وتقول:

- ومن منا لايفتقد أباك، أنا أيضًا قد اشتقت له بشدة، ولكنها الظروف التي يجب أن تتحملها كأي رجل، أحمد الله أننا موجودون معًا، أنا وانت وأختك الصغرى، بينما أبوك يعيش هناك وحيدًا، هل فكرت يوما في حالة والمعاناة التي يكابدها وحيدا ليوفر لك ولنا الحياة الكريمة التي نحياها؟!

نهرتها و بصوت عال قلت:

- أنا لا أريد تلك الحياة الكريمة، أنا فقط أريد العودة.

نظرت لي أمي بعينيها الدامعتين، نظرة ذات معنى، فارتميت في حضنها سريعًا وأنا أقول باكيا:

- أنا آسف ياأمي، أعتذر لك عن صوتي العالي، ولكنني أقسم لك قد سئمت ذلك الوضع.

قالت، وهي تمشط شعري بيديها الرقيقتين،:

- هون عليك ياصغيري، أنا جل ما اتمناه أن تكون أنت وأختك في مصاف الناس الطيبة الصالحة والمفيدة لأنفسهما ووطنهما، اذهب واغسل وجهك ثم توضأ وقم بصلاة المغرب، وتعالَ كي نتصل بوالدك لنطمئن عليه، فلا يجب أن يراك دامعا هكذا.

بلا حيلة قلت:

- حاضر ياأمي.

***

في فسحة اليوم التالي، وأثناء ذهابي لدورة المياه بالمدرسة، وجدت صديقي أحمد عصام يلعب كرة القدم مع بعض الطلبة الآخرين، والذين كنت أعرف وجوههم، وكان معظمهم من فصلنا ولكني كنت لا أذكر أسماءهم.

أشار لي أحمد عصام أن أنضم اليهم في اللعب، أشرت له بأني ذاهب إلى دورة المياه، هز رأسه متفهمًا وهو مازال مبتسمًا تلك الابتسامة التي تجعل عينيه تختفيان.

ذهبت وعدت فأشار أحمد لتلميذ آخر أن ينزل الملعب وقال مشيرًا للفتى وللفريق الآخر:

- إبراهيم سيلعب معكم، بينما سينضم مازن إلى فريقي.

وقد كان...

نزلت إلى أرض الملعب، وعلى الرغم من ارتدائي حذاء جلديا كلاسيكيًا، وليس حذاء رياضيًا، إلا أن الجميع، بما فيهم أحمد عصام، قد انبهروا بآدائي الكروي وطريقة لعبي للكرة، وهو الشئ الذي لم يكن أحد يتوقعه.

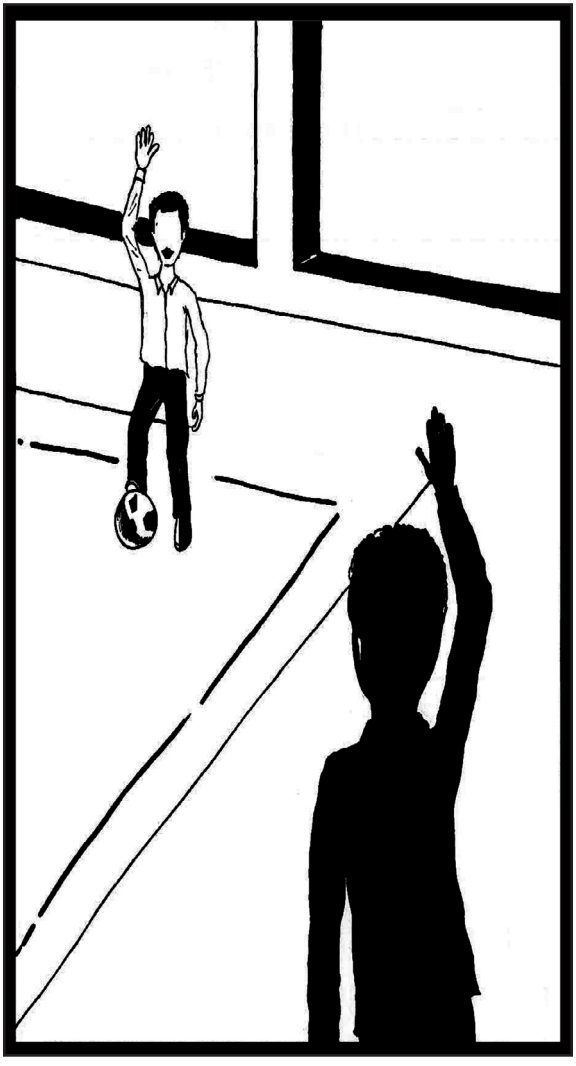

أشار لي أحمد عصام أن أنضم اليهم في
اللعب، أشرت له بأني ذاهب إلى دورة المياه

كانت قوانين اللعب تحتم أن يستمر الفريق الفائز في لعب المباراة القادمة بينما يخرج الفريق الخاسر ويحل محله فريق آخر من الجالسين على الرصيف، أو كما يسميها التلاميذ طريقة «الغالب مستمر».

اعترض الفريق الجديد الذي كان سيلاعبنا بعد ماهزمنا الفريق الآخر ستة أهداف للاشئ - على وجود أحمد عصام وأحمد معتصم وأنا بفريق واحد، وقالوا إن هذا ليس عدلًا، الأمر الذي رفضه أحمد عصام بشدة، وقال لهم:

- أنا طلبت انضمام مازن لفريقنا وأنا لا أعرف مستواه المهاري، وأنتم الآن تريدون أن تضموه لفريقكم، كان ذلك ممكنًا قبل أن تشاهدوا مستواه.

وبلهجة من ينهي أمرا مفروغا منه:

- إنه صديقي وسيلعب ضمن فريقي أنا، ونحن من ربحنا المباراة السابقة، وتلك هي القواعد.

ثم غمز لي بعينه إشارة ذات معنى.

ضحكنا كثيرًا ولعبنا الكرة في منتهى التفاهم وكأننا نلعبها معًا في نفس الفريق منذ عصور، وقبل

أن تنتهي المباراة الثالثة كان قد وصل بنا التفاهم إلى أننا كنا ننقل الكرة بين أرجلنا بسلاسة أدهشت من يشاهدونا.

انتهت الفسحة فذهبنا جميعا لدورة المياه لنغسل وجوهنا، ومازالنا نضحك ونتحدث عن المبارايات التي لعبناها، وعماد صديقنا من نفس فصلنا أيضًا، لازال يقول إنه ليس من العدل أن نلعب ثلاثتنا في نفس الفريق في الوقت الذي يلعب فيه وحده مع أربعة لاعبين (مكسحين) على حد وصفه.

فقال لهم أحمد عصام بلهجة انتصار:

- ياشباب ها نحن أولاء قد وجدنا اللاعب الخامس الذي سيتم به فريق فصلنا لكرة القدم، الفريق الذي سيشارك في دوري المدرسة.

ثم أردف قائلا:

- مازن لاعب من العيار الثقيل، وقد ساقه الله لنا لكي يكتمل فريقنا، وهو ما يحتاجه فريقنا بشدة.

ثم نظر لي واكتست ملامحه جدية مفاجئة:

- أحضر معك عشرة جنيهات قيمة الاشتراك في الدوري غدًا.

ثم أكمل بنفس الحماس السابق:

- فريقنا يلعب بقميص النادي الأهلي إن استطعت أن تحضره فبها ونعمة، وإن لا فعليك إحضار أي قميص آخر متاح لك، فقط أن يكون أحمر اللون.

ابتسمت وأنا أقول:

- القميص الأساسي لبايرن ميونيخ أو مانشيستر يونايتد؟

قال بسرعة:

- ممتاز أحضر أحدهما...

ثم أكمل كمن تذكر شيئًا مفاجئًا:

- أو كلاهما، نحن لانضمن الظروف في أوائل مباريات الدوري، أحضر معك كليهما حتى تستقر أموراللعب واللاعبين وتقام القرعة وتحديد موعد المباريات.

اندهشت من جديته في الحديث عن الدوري، قائد حقيقي يعرف مايفعله، واكتشفت من الحديث أنه تم انتخابه كمقرر النشاط الرياضي في فصلنا قبل مجيئي إليهم، واكتشفت أيضًا أن هناك انتخابات تتم لاختيار مقررين لكافة الأنشطة في كل الفصول، وأن الصراع على منصب مقرر النشاط الرياضي تحديدا يكون على أشده، فتعجبت من وجود ذلك النظام الجيد جدًّا في اختيار مسئولين من كل فصل لمزاولة كافة الأنشطة، وتساءلت في نفسي: من أين تكمن مشكلة ذلك المستوى المتردي للمدرسة إذًا؟! ولأول مرة منذ أن عدت إلى مصر أشعر بتلك المشاعر الإيجابية، وللمرة الأولى ارتبط ذلك الارتباط بالمدرسة، وفي المنزل طلبت من والدتي أن تصنع لي بعض المعجنات التي أحبها، لأني أستشعر الجوع، فبادرت لعملها في زمن قياسي، التهمت المعجنات التي صنعتها والدتي بنهم شديد، ثم لعبتُ قليلًا مع أختي نسرين ودلفت إلى حجرتي بعد صلاة المغرب لاستذكار دروس اللغة العربية، حيث كان أستاذ علاء قد حدد لنا اختبارًا شهريًا في اليوم التالي، ولأسباب يعرفها

الجميع كانت تلك الاختبارات التي يضعها الأستاذ علاء في اللغة العربية ليست في مستوى الطالب المتوسط أبدًا.

انتهيت من دروس القراءة وحفظ نصوص المحفوظات، راجعت النحو بنصف ذهن ثم قمت لصلاة العشاء، أحضرت والدتي لي شطائر الجبنة التي أفضلها وبجوارها كوب من اللبن، وللمرة الثانية ألتهم طعامي بنهم.

راجعت دروس مادة العلوم التي كانت هينة بالنسبة لي؛ حيث كانت قد وضعت لنا ميس منى اختبارًا في اليوم التالي، وحيث كنت أجلس لاستذكار دروس العلوم مستمتعًا، سمعت صوت والدتي ينادي عليَّ من الخارج، فخرجت لها فقالت:

- مازن لقد نفدت حفاضات نسرين وأحتاج بعضا منها من المتجر المجاور للمنزل.

ثم أضافت:

- وقدماي تؤلماني، ولا أستطيع النزول يامازن فهل تحضرها لأجلي؟

أومأت لها أن نعم، كنت أريد أن أخلد للنوم بعد الانتهاء من مراجعة دروس العلوم، ولكن طلبات والدتي لا أستطيع رفضها أبدًا؛ فهي دائمًا ما تبذل قصارى جهدها في خدمتنا، تناولت النقود منها وفتحت باب الشقة وخرجت، وما أن أغلقت الباب حتى وجدت فتاة واقفة بالباب المقابل لشقتنا التي يقطنها جيراننا، مرتدية ملابس المنزل كانت، شديدة البهاء، عيناها عسليتان وقد عقصت شعرها للخلف فيما يسمى ديل حصان، وكانت تعالج شيئا ما في سلة المهملات الموضوعة أمام شقتهم خفق قلبي لرؤيتها، ولدهشتي أنها ابتسمت لما رأتني، فقلت وأنا أنظر إلى الأرض وأمضي سريعًا للنزول.

- السلام عليكم.

سمعتها وأنا أهبط سريعًا على الدرج حيث لم أستطع أن أنتظر المصعد وهي واقفة.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ذهبت سريعا إلى المتجر بينما لا زال قلبي يخفق، ابتعت الحفاضات وأخذت أركض في طريق العودة حتى وصلت إلى مدخل البناية، توقفت

قليلا كي التقط أنفاسي، وضغطت على زر استدعاء المصعد، استغرق هبوطه قرنًا من الزمان، ولدهشتي كان هناك شئ ما بداخلي يتمنى أن أجد تلك الفتاة لازالت واقفة، فقط كي أراها ثانية.

فتحت باب المصعد في الدور الذي به شقتها، وقلبي يتواثب بين ضلوعي، كانت الردهة مظلمة، كنت لا أرى شيئًا كتلك اللحظات الأولى التي تلي انقطاع الكهرباء، ولما اعتادت عيناي على الظلام، بالطبع لم أجد الفتاة.

دلفت إلى شقتنا وأعطيت أمي الحفاضات وباقي النقود، لثمت خدي شاكرة فاتجهت إلى حجرتي أغلقت النور وتأهبت للنوم، بينما ظلت تطاردني عينا تلك الفتاة كلما أغلقت عيني.

استيقظت مبكرًا في الصباح كما عهدت نفسي، ولأول مرة منذ فترة طويلة استيقظ مبتسمًا، ارتديت ملابسي على عجل ثم وضعت عطرًا، هذبت شعري، واطمأننت على أن ذلك الشارب الرقيق الذي بدا في الظهور على شفتي العليا والذي افتخر به كثيرا مازال ينمو باضطراد، تناولت شطيرة وشربت

كوبا من العصير كانت والدتي قد أعدته، ثم قبلَّت أمي ونسرين النائمة ثم خرجت مسرعًا من شقتنا وأنا أدعو الله أن أرى فتاة الليلة الفائته مرة أخرى.

كان الممر خاويًا كعقل معظم طلبة مدرستي، فاتجهت إلى المصعد وضغطت زر استدعائه وعيناي معلقتان بأحد أبواب الشقق، جاء المصعد فتوجهت إلى المدرسة سريعًا.

***

حينما نزلت الشارع، كنت أشعر أن الهواء نقي، والناس أكثر ودًا، والشوارع نظيفة، وبينما أرى عينيها في وجه كل بنت ذاهبة إلى مدرستها، كما كنت ألتمس ملامحها تلك التي لم أتذكرها جيدًا في أوجه الفتيات الجميلات الذاهبات لمدارسهن طوال الطريق، وكنت أشعر أن الأمس بعيد جدًّا.

فرغنا من الطابور وفقرة التعذيب اليومي المسماة بتحية العلم ثم صعدنا إلى فصلنا، سلمت على أقراني وجلس كل منا في كرسيه.

الحصة الأولى كانت حصة ميس منى مدرسة العلوم، وكان اختبارها في منتهى السهولة، قالت لنا

وهي ترفع عويناتها على أنفها، وبطريقتها الإيجابية التي تجيدها:

- أيها الأعزاء ليس الغرض من ذلك الامتحان هو ترتيبكم من حيث الأمهر أو الأكثر استيعابا فقط، إنما الغرض الأساسي من ذلك الامتحان هو تحديد نقاط القصور في طريقة استذكار كل طالب منكم، وتحديد أولويات دراستكم واستذكاركم، فلتعوا هذه النقطة جيدًا، فلا داعي للقلق، وكما قلنا سابقًا إن مرحلتكم الإعدادية تلك هي مرحلة هامة جدًّا لأنها تعتبر بمثابة إعداد للدراسة الثانوية فيما بعد، والتي سيتحدد وفقها مستقبل كل طالب منكم، فيجب أن تغتنموا تلك الفرصة في تحصيل كل المعلومات المتاحة وتبحثوا أيضًا وراء المعلومات.

ثم ابتسمت و شرعت في توزيع ورق الامتحان.

دارت عيناي سريعا بين الأسئلة وأدركت، من الوهله الأولى، أني أستطيع إجابة جميع الأسئلة الموجودة وبسهولة، فشرعت أجيبها في ثقة.

الامتحان لم يكن صعبًا، عرفت ذلك من الصمت الذي خيم على الفصل، فكل الطلبة قد

انشغلوا في إجابة الأسئلة، حتى أولئك الطلبة الذين كان مستواهم التحصيلي منخفضا، وحتى أولئك معتادي الشغب ودائمي الغش في الامتحانات، قد صمتوا تماما، مما جعلني أركز أنا أيضًا وأقوم بالإجابة على خير مايرام.

انتهيت من إجابة أسئلة الامتحان في زمن قياسي، فجلست أراجع إجاباتي، وفي ذهني تتردد تلك الصورة عن الليلة الفائتة.

طردت تلك الخواطر سريعًا، فلكل مقام مقال، كما يقولون.

مرت ميس منى ونظرت بطرف عينيها في ورقتي وابتسامتها الدائمة لم تفارق وجهها، ثم اتجهت إلى السبورة ثم قالت بعد هنيهة:

- لقد انتهى الوقت فليضع كل طالب ورقته على الطاولة.

ثم مرت لأخذ أوراق الإجابة، وقبل أن تفرغ من تجميع الورق رن جرس الحصة، وبعد دقيقتين جاء الأستاذ علاء وظل واقفا حتى انتهت ميس منى من مهمتها فحيتنا وانصرفت.

وقفنا كما هي العادة احترامًا لدخول الأستاذ علاء والذي كان كالعادة أيضًا مقطب الجبين، وبدون كلمة فتح حقيبته ثم أخرج أوراقًا مطبوعة قام بتوزيعها علينا، وجلس وهو يقول:

- لا أريد أن أسمع صوتًا، كل طالب يضع عينيه في ورقة الأسئلة، ويجيب على ما يعرفه من أسئلة وفقط.

ولم يزد كلمة أخرى:

ثم أخرج هاتفه الذكي و لم يرفع عينيه عنه.

ولأني كنت أعرف أن الامتحان سيكون عسيرًا بعض الشئ، كنت أستخدم طريقتي التي اعتدتها في الإجابة على الأسئلة، حيث قمت بطي الورقة بحيث تظهر أسئلة القراءة فقط، و بدأت بإجابة تلك الجزئية التي أجيدها، حتى تعطيني دفعة معنوية لإجابة باقي الأسئلة، حيلة نفسية أستخدمها دائمًا مع المواد الدراسية التي لا أفضلها، ولما فرغت من إجابتها بشكل جيد تيقنت أن استراتيجيتي تعمل بشكل جيد، فبسطت الورقة على أسئلة القصة ولدهشتي أجبتها بشكل أفضل من سابقتها.

ولسبب مختلف تمامًا عن الحصة السابقة كان طلبة الفصل لا يصدرون أي صوت، مما جعلني أركز أكثر في الامتحان.

وقبل أن أنتهي من إجابة أسئلة القصة جميعها، ارتج الكرسي الذي أجلس علية فجأة نتيجة دفعه من الخلف فجفلت، ورفعت عيني من على ورقتي ونظرت للخلف فوجدت أحد الطلبة دائمي الشغب يطلب مني بتوسل أن أمليه إجابة السؤال الأول، الأمر الذي كنت أنكره بشدة، فأنا أكره الغش والغشاشين، كما أن الأحمق لا يعرف أنني لم أصل إلى السؤال الأول، ولا أعرف ما هو من الأساس.

نهرته وأنا أشيح له بيدي، فلم يصمت، ولدهشتي أصرعلى دفع مقعدي بقدمة وأخذت طاولتي ترتج أكثر فأكثر، حاولت تجاهله عدة مرات والعودة للإجابة، لكن القلم كان يتحرك في يدي، حركات عشوائية ويرسم خطوطا غير منتظمة ودوائر بورقة الإجابة نتيجة لدفعه للكرسي من الخلف.

حاولت أن أتجاهله مرات عدة، وحانت مني التفاتة مناشدة إلى الأستاذ علاء والذي كان مايزال ناظراً مبتسمًا في هاتفه الذكي.

حقدت عليه حقدا بالغا في حقيقة الأمر، لم أشعر في حياتي بالحنق تجاه شخص ما مثلما شعرت تجاه هذا الأستاذ.

فذلك الطالب السخيف كان من أولئك الطلبة الذين يحضرون معه دروسًا خصوصية.

ولدهشتي جاءتني الإجابة التي نشدتها كمن قرأ أفكاري، قال لي ذلك الطالب وهو مازال يدفع الكرسي بقدمه بتلك الطريقة الطفولية السخيفة، إنه لم يستطع حضور حصة الأمس والتي كان يراجع لهم فيها الأستاذ علاء المنهج، أو بصيغة أخرى يعطيهم أسئلة الاختبار.

كنت كالذي وضع بين المطرقة والسندان، أريد أن يخرس ذلك الأحمق، وفي نفس الوقت لم أستطع أن أحتكم إلى الأستاذ علاء لأنه منحاز من الأساس.

فكرت أن أملي عليه أي إجابة خاطئة كي يصمت وأنتهي منه، ولكني تذكرت مقولة والدي أن عليَّ أن أفعل الصواب مهما كلفني ذلك الأمر.

دعوت الله مخلصًا أن يصمت هذا الأحمق لفترة أو يتعب كي يتركني أركز في أسئلة الاختبار، حاولت العودة للكتابة مرة أخرى ولكني فشلت، ولما سئمت ولم أعد أحتمل، هتفت بصوت عالٍ:

- اخرس أيها الأحمق.

فرفع الأستاذ علاء أخيرًا عينيه من على هاتفه الذكي وقال:

- من هذا الذي تكلم؟

رفعت يدي وقلت له بنفاد صبر:

- أنا الذي تكلمت.

ثم أشرت إلى الطالب الذي خلفي وأكملت:

- هذا الفتى يريدني أن أغششه السؤال الأول ولما رفضت، أخذ يهز الكرسي بقدمه مما جعلني لا أستطيع أن أكمل إجابة الأسئلة، نهرته مرة وتجاهلته مرات ولم يكف، فماذا عساي أن أفعل؟ أريد أن أكمل الاختبار.

وأخذت أتنفس بصعوبة، وانتظرت تصرف الأستاذ علاء والذي ما كان منه إلا أن نظر إلى

الفتى وبلهجة لم أعهدها منه من قبل وبحنوٍّ غريب قال:

- ألم تكف عن مشاغبتك تلك ياسيد؟

وبابتسامة سمجة أضاف:

- إن هذا جزاء غيابك عن درس الأمس.

ثم نظر لي وتبدلت نظرته، وبمنتهى القرف قال:

- أما أنت فلا أريد سماع صوتك ثانية.

كنت أرتجف من الغيظ وأشعر بأذنيَّ تنبضان من اندفاع الدم بهما، فقد بلغ بي الحنق مبلغه، وبمجرد عودتي للجلوس، وعودة الأستاذ علاء للنظر في هاتفه الذكي، حتى عاد ذلك «السيد» إلى دفع الكرسي الذي أجلس عليه ثانية.

زفرت زفرة شديدة، ضحك على أثرها باقي أفراد العصابة التي ينتمي لها هذا البغيض، مما زاد حنقي، كان قد بلغ بي الحنق وإحساس الظلم مبلغه، فوقفت والتفت إلى سيد، ثم دفعته دفعة شديدة في كتفه انقلب بكرسيه على ظهره على الأرض من أثرها.

هنا ولدهشتي وجدت الأستاذ علاء خلفي وقد رفع عصاه ونزل بها على يدي اليمنى بشدة.

أحسست بالنار تسري في يدي، ثم لطمني بيديه على وجهي، فانفجرت دموعي ليس فقط من الألم فقط إنما كنت أبكي من الإهانة والظلم الواقعين عليَّ.

تحول لون كفي للون الأزرق في ثوان، وشعرت بألم مبرح، ولأقل حركة لجسدي كان الألم شديدًا حتى من ارتفاع صدري وهبوطه خلال عملية التنفس.

فملت للأمام مرغما ووضعت رأسي على الطاولة وأنا أبكي بحرقة، وقال لي الأستاذ علاء بعد هنيهة أن أنزل أغسل يدي ووجهي في دورة المياه.

تبرع صديقي أحمد عصام بأن ينزل معي حيث كنت متكئا عليه ونحن نازلان السلم اللانهائي المؤدي لملعب المدرسة.

كنت أشعر من شدة الألم بأن السلم بلانهاية، وبالطبع الامتحان أصبح شيئا من الماضي بالنسبة لي ولأحمد عصام.

إحساس الألم تضخم ولم يترك لي مجالا للرؤية أو التصرف السليم، ذهبنا إلى حجرة الطبيب فقابلتنا ممرضة شمطاء قائلة لنا وهي تشير ليدي:

- ماذا حدث لك أيها الأحمق؟

تكفل أحمد عصام بالرد:

- مدرس اللغة العربية ضربه على يده بالعصا.

فجفلت ونظرت للطبيب الطاعن في السن وقالت:

- يجب أن نقوم بعمل إثبات حالة حتى لا نقع تحت طائلة القانون.

وكأن كل مايهمها هو عدم وقوعهم تحت طائلة القانون وفقط.

قام الطبيب بعدما نظر مليًا إلى معصمي، وحاول تحريكه وسط صرخاتي، بإملائها تقريره الطبي الذي كتبته الممرضة على عجل ثم ولشدة دهشتي بعدما فرغت منه لم تحرك ساكنًا، ثم قالا لي بلا اكتراث:

- يجب أن تذهب إلى المشفى لعمل جبيرة ليدك.

وعادا إلى حديثهما السابق وكأن شيئًا لم يكن، بل وكأننا غير موجودين، نخرجنا من العيادة لا نلوي على شئ، غير أن الألم لم يكن محتملًا.

اتجهنا ناحية باب المدرسة ففوجئنا بوكيل المدرسة يستوقفنا وكانت الأخبار قد وصلته، ثم استضافنا في مكتبه الوثير، وأنصت بهدوء شديد لصديقي أحمد عصام حيث حكى له ما حدث، وكنت من شدة الألم لم أنطق ببنت شفة، وبعدما انتهى أحمد من كلامه، اظهر الوكيل تعاطفًا شديدًا معنا، ثم قال موجها كلامه لي وبلهجة ناعمة:

- إن ما حدث لايقبله أحد، ولكن من المؤكد أن الأستاذ علاء لم يكن يقصد إصابتك، فهو كأحد أبويك ويهمه مصلحتك.

استوقفتني كلمة «كأحد أبويك» تلك، وتخيلت منظر الأستاذ علاء مرتديًا ملابس والدتي، فابتسمت رغما عني، فهش وكيل المدرسة لابتسامتي، ثم أردف:

- أريدك فقط أن توقع لي على تلك المذكرة وسأجعلك تذهب للبيت باكرًا اليوم.

ثم ضغط على زر أمام مكتبه، فجاءه أحد السعاة، فقال له بلهجة رسمية:

- استدعِ الأستاذ نبيه حالًا.

اشار لي أحمد عصام ألا أفعل أو أوقع على شئ، ولكني كنت قد سئمت كل شئ، وأريده أن ينتهي بأي ثمن.

كما كان الألم لا يوصف، فلما جاء الأستاذ نبيه وفرغوا من كتابة المذكرة، التي أتبرأ فيها من كل حقوقي وأنني أنا السبب بتصرفاتي الرعناء في الفعلة التي فعلها هذا الأستاذ علاء من ضربي وكسر كف يدي، لم أستطع الكتابة بيدي اليمنى فأشار إليَّ وكيل المدرسة بأن أوقع باليسرى.

وبعد ذلك تركونا نمضي، بنفس طريقة الممرضة والطبيب، وكأننا لم نوجد من قبل.

لفظتنا المدرسة حرفيا إلى الشارع...

لفظتنا المدرسة حرفيا إلى الشارع...

فأخذت أبكي طوال الطريق إلى البيت، لم ينبس أحدنا ببنت شفة رغم محاولات أحمد العديدة للاتصال بوالدتي والتي كان هاتفها الخلوي غير متاح، كان يدعمني من يدي حتى وصلنا للبيت فصعدنا في المصعد.

اكفهر وجه أمي حينما وجدتني على تلك الحالة، وصرخت حينما أدركت ما حل بيدي، الأمر الذي جعل جيراننا يأتون مسرعين للسؤال عما هنالك، ولحظي الرائع كانت تتبعهما تلك الفتاة التي كنت قد رأيتها في اليوم السابق.

ولما عرفوا الموضوع من صديقي أحمد أصر والدا الفتاة أن يصطحبا والدتي بسيارتهم إلى المستشفى.

وعلى الرغم من الألم كنت ممتناً لذلك الكسر الذي كان سبباً في نظرة التعاطف تلك التي شاهدتها في عين الفتاة، والتي لم تكن آخر انتصاراتي في ذلك اليوم الغريب، أنني عرفت أن اسمها راندا.

***

الفصل الخامس

إجازة إجبارية

يدي اليمنى تم تجبيسها نتيجة لشرخ في سلميات الأصابع وعدة سحجات بالكف، عادت عمتي من السفر في ظهيرة اليوم التالي، كنت مرهقًا جدًّا وقد غلبني النوم معظم ساعات النهار.

دلفت عمتي إلى حجرتي وأيقظتني من النوم، حكيت لها ما حدث، فلم يبدو على وجهها أي انفعال، بل انتظرت حتى انتهيت من كلامي، ثم قالت لأمي:

- أين التقرير الطبي عن حالة يد مازن؟

- بدرج المكتب.

ثم توجهت أمي لإحضاره، فتناولت عمتي التقرير من يدها ثم لثمت يدي المكسورة فحضنتها،

فقد عادت للتو من السفر فودعتنا وانصرفت، بدون كلمة أخرى.

لم أعرف مالذي كان عليَّ القيام به، فأنا لم أعتد الراحة بالمنزل فترة طويلة، بل دومًا كان وقتي مشغولًا بالمدرسة أو الاستذكار والتدريب بالأكاديمية.

ولدهشتي شعرت بالملل يكاد يخنقني، لقد كنت من قبل أتمنى أن أتحصل على أي إجازة، والآن وقد جاءتني إجازة إجبارية، فشعرت بالملل منذ اليوم الأول.

ولكن عمتي ولسبب لم أفهمه، هاتفتني في المساء، ثم قالت لي إن عليَّ ألا أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، وأنهت المكالمة على عجل.

لم تكن تعرف أن الطبيب قد أوصى لي بإجازة أسبوعًا.

شعور الخواء هو ما كنت أشعر به، أستشعر تلك الحالة من السكون والتي كانت دائمًا ما تسبق العواصف.

ولكن، ولأول مرة، لم تؤلمني شحمتا أذني، كما يحدث في مثل تلك الأوقات، وهو كان أمرًا إيجابيًا طمأنني قليلًا.

ظللت طوال تلك الليلة أحاول الاستذكار فلم أستطع، كانت طريقتي الأبدية في الاستذكار هي كتابة الدروس بيدي ومراجعتها كتابةً.

ذلك الأمر الذي لم أعد قادرًا عليه لوجود الجبس، وعبثًا حاولت أن أغير طريقتي في الاستذكار، ذلك الأمر الذي كان في غاية الصعوبة، حيث كانت المعلومات تتبخر بسهولة.

رن هاتفي وكان أحمد عصام هو المتصل كي يطمئن عليَّ، وأخبرني أن دوري المدرسة لكرة القدم سيبدأ في الغد، وفريقنا سيلعب مباراته الأولى بعد يومين وبدوني، وأن عليَّ أن أتماثل الشفاء سريعًا من أجل الفريق.

تمازحنا كثيرًا، لكنه لم يتطرق في حديثه عما حدث معي في المدرسة، أنهيت المكالمة وأنا أشعر بالسعادة من اهتمام ذلك العزيز بي.

استيقظت في اليوم التالي في نفس موعد المدرسة، ولكني ظللت برهة راقداً على السرير حتى جاءت أمي وقالت لي بابتسامتها العذبة:

- ماذا تريد أن تتناول على الفطور؟

أجبتها صادقًا:

- أي شئ تصنعينه بيديك ياأمي سيكون رائعا، أنا أريد أن أستحم ياأماه ولا أدري كيف أفعل ذلك.

ابتسمت وقالت:

- نعم، هكذا إذا تتضح الأمور، أنت تريد بعض الدلع، و تريد أن تغتنم الفرصة وتتحجج بأنك مريض كي تعود طفلا مدللا كما كنت في السابق، كلا يا سيدي أنت رجل يافع، وتستطيع الاعتماد على نفسك.

قلت لها باسمًا:

- صدقيني إن الأمر أبسط من ذلك ياأماه، أنا فقط أريدك أن تربطي يدي بأي شئ يمنع تبللها وأنا سأستحم وحدي بدون مساعدة أو دلع.

أضافت وابتسامتها لم تفارقها:

- إذا كان كذلك فلابأس، سأحضر لك كيسًا بلاستيكيًّا لنربطه على ذراعك.

ثم خرجت وهي مازالت تضحك.

إن أمي سيدة طيبة القلب جدًّا، وأنا أعرف أنها تريد الترفيه عني ومغالبة شعورها بالأسف من أجلي.

جهزت لي أمي ملابسي التي سأرتديها بعد الاستحمام، ففرغت من الاستحمام سريعًا وعلى الرغم مني وعلى الرغم من كيس أمي البلاستيكي، تبللت يدي التي في الجبس، فحاولت تجفيفها قدر ما استطعت، ثم خرجت لأجد أمي تخبرني أن عليَّ أن أتصل بعمتي هديل على الفور فهي تريدني.

قالت لي عمتي حينما هاتفتها، إن عليَّ أن أتأنق، وقالت إنها قد أرسلت لي سيارة عن طريق تطبيق «أوبر» لتوصيلي إليها حيث تنتظرني في وزارة التربية والتعليم.

***

طوال الطريق إلى الوزارة كانت دقات قلبي تتسارع، ولما وصلت أخبرت الأمن، كما قالت لي عمتي، إنني أريد أن أصعد إلى مكتب السيد وكيل الوزارة وعرفته بنفسي، فاتصل ضابط الأمن بجهاز اللاسلكي الذي بيديه، مرت برهة ثم سمح لي بالصعود.

بعينين زائغتين ركبت المصعد، وشعرت أن قلبي سيثب من ضلوعي، وما إن دخلت المكتب الفاره للسيد وكيل الوزارة حتى وجدت عمتي هديل جالسة تتحدث معه، وكالعادة وجودها قد هدأ من روعي قليلًا.

ثم قالت لي:

- احك كل شئ للسيد وكيل الوزارة يامازن.

في البداية تلعثمت في الكلام، ثم تذكرت الأستاذ علاء وظلمه غير المبرر لي ولأقراني، فحكيت كل شئ.

حكيت عن طريقته في التعامل معنا وطريقته المختلفة في التعامل مع تلك العصابة من التلاميذ، وعن إجباره لمعظم التلاميذ للاشتراك في الدروس

الخصوصية التي يدرسها، وحكيت عن امتناعه عن شرح المنهج في الفصل واختلاق الحجج حتى يعاقبنا بعدم الشرح، حكيت عن ضربه لي وكسره لكف يدي قبل الامتحانات محاباة لأحد أولئك التلاميذ والذي كان يريدني أن أغششه إجابة أسئلة الاختبار.

أخبرته أنه يعطيهم أسئلتها قبل الاختبار الشهري في درسه الخصوصي، وان ذلك الفتى لم يحضر حصة المراجعة، وبدلا من أن يعاقبه هو ضربني أنا على يدي ووجهي، وحكيت عن الممرضة والطبيب، ووكيل المدرسة، وما أن فرغت من الحكي أجهشت بالبكاء رغمًا عن إرادتي.

كانت عمتي هديل هي أول المتكلمين حيث قالت:

- كما ترى ياسيدي الوكيل، المدرسة أصبحت شيئا قبيحا يهدد السلام النفسي لطالب مجتهد كمازن، أتمنى من سيادتكم أن تستفسر من الأساتذة الآخرين عن مستوى مازن في بقية المواد الدراسية، مازن طالب مجتهد بشهادة جميع مدرسيه في المملكة، وهنا أيضًا.

أجابها وكيل الوزارة وقد كان التأثر باديًا على وجهه:

- ثقي تماما ياأستاذة هديل أن سيادة الوزير وأنا لن نسمح بمثل تلك الأفعال غير المسئولة أن تتكرر، حالة مازن يتابعها أيضًا السيد رئيس الجمهورية باهتمام، ومهتم أيضًا جدًّا بنتيجة التحقيقات، ونحن إذ نعتذرعما حدث فإن الوعد بتحقيق العدالة أمر مفروغ منه.

ثم أخذ نفسًا عميقًا وأكمل:

- وفقًا للقانون، سيتم عمل لجنة خاصة لامتحانات نصف العام الخاصة بمازن، وذلك لأن يده اليمنى مازالت في الجبس، ولا يستطيع الإجابة، سنحضر له طالبًا أصغر سنًا يقوم بكتابة ما يمليه علية مازن من إجابات في الامتحانات.

هتفت عمتي سريعًا:

- لا، أنا لاأريد لمازن أي ترتيبات خاصة، فقد وعدني الطبيب أن نفك ذلك الجبس قبل الامتحانات بيومين، ولا أريد لجنة خاصة له، مازن ابننا طالب مجتهد وسينجح فقط بمجهوده، أن كل

ما نتمناه ياسيادة الوكيل أن نوفر لمازن وأقرانه البيئة المناسبة الملائمة للتعلم؛ فهم من سيحملون راية الوطن في المستقبل.

- ثقي تماما يا أستاذة هديل أن هذا الأمرهو الشغل الشاغل لسيادة الرئيس وسعادة وزير التعليم، ونحن سننفذ سياساتهم بأمانة، ثقي تمامًا.

بدا لي الأمر سخيفاً لا يخلو من التملق، إلا أنني كنت سعيدًا راضيًا.

وكنت أيضًا متوقعًا أن يحدث ذلك الموقف تغييرًا في تعامل المدرسة معنا، انتهى اللقاء وأنا غارق في أفكاري تلك، فقام وكيل الوزارة لتوديعنا.

وبمجرد خروجنا من المكتب، أخبرتني عمتي، ونحن نركب سيارتها، أننا ذاهبان لحضور برنامج تليفزيوني لمذيع شهير كضيفين في حلقة الليله من البرنامج، وذلك للحديث عما جرى معي في المدرسة.

للمرة الأولى في حياتي أرى استعدادات تلك البرامج والمجهود الشاق الذي يبذله جيش من الفنيين والفنانين لكي يظهر ذلك المذيع المشهور بتلك الطريقة أمام الكاميرات، وللمرة الأولى في

تاريخ البرنامج، تبدأ إحدى حلقاته بفقرة وليس بعناوين لأخبار اليوم.

وكانت مقدمة البرنامج نارية وبطريقته الدرامية المؤثرة حكى فيها الصحفي الشهير ما حدث معي من الأستاذ علاء، وقد قال اسمه بالحروف الأولى فقط.

أراحني كلامه عن أن المدرسة يجب أن تكون البيت الثاني للطلاب، وليس مكانا للتعذيب والتنمر واكتساب الأطفال الأمراض النفسية بدلا من إكسابهم للمهارات العلمية المختلفة، وأنه يجب الكشف الدوري النفسي للمعلمين قبل أن يتم السماح لهم بالتدريس.

ثم انتقل إلى الترحيب بنا والترحيب بعمتي هديل التي وصفها بالزميلة هديل شوقي، ثم ترك لعمتي المجال للحديث، فقالت عمتي:

- إن المشكلة ليست في مازن وما حدث لمازن، بل إن مشكلة مازن- لسبب أو لآخر- قد وجدت طريقها للإعلام، إنما المشكلة أن هناك مئات الحوادث مثل تلك التي حدثت مع ابن أخي، والتي لا تجد طريقها للإعلام أبدًا، لا يدري عنها أحد

شيئا، بل تصور ياسيدي أن مدير ووكيل المدرسة أرادا أن يسلبا ابن أخي حقه الطبيعي، وأجبرا الولد أن يوقع على تنازل عن حقوقه حتى قبل أن يطمئنا على إصابته، المربيان الفاضلان قد تخليا عن حيادهما واصطفا في صف زميلهما، كما أن السيد طبيب المدرسة والسيدة الحكيمة أرادا تخليص نفسهما وفقط من المساءلة القانونية، ولتذهب أخلاقيات المهنة ورسالة التعليم وقسم أبي قراط إلى أقرب مقلب قمامة، ولحسن الحظ أنه ليس بعيدا، بل إن أمام المدرسة أكبر مقلب للقمامة شاهدته طوال عمري.

ثم تدخل المذيع بلطف وبطريقته الذكية في تلطيف الأجواء، ونقل دفة الحديث تجاهي وقال لي: احكِ ماحدث. فحكيت ما يجري في مدرستنا وما يفعله ذلك المدرس، وأنه الوحيد الذي يتعامل معنا بنفس الطريقة، وذكرت أن هناك باقي الأساتذة الذين يتعاملون معنا بمنتهى التقدير، وذكرت اسم ميس منى مدرسة العلوم، وأنها تحضر لي الروايات التي أقرأها لما عرفت حبي للقراءة، وأنها تتعامل معنا كصديق وليس كأستاذة وتلاميذ.

فهش المذيع و قال لعمتي: إن هناك ضوءا في المسألة، وإن الصورة ليست قاتمة تمامًا، وإن هناك أملا ما، فأجابته عمتي بالإيجاب، وبطريقته المسرحية وجه الشكر على الهواء للسيدة منى مدرسة العلوم بمدرسة مازن.

وذكرت عمتي أيضًا أن السيد وكيل الوزارة قابلها اليوم ووعدها أن يتم التحقيق المحايد في الحادث ومحاسبة المخطئ، وأن حق مازن لن يضيع، وهنا قال المذيع وهو يضغط على السماعة التي بأذنه، والتي يتحدث فيها مخرج البرنامج، قائلًا: إن هناك مداخلة من السيد وكيل الوزارة.

وحينما بدأ المذيع على الهاتف في الرد قائلا:

- مساء الخير سعادة الوكيل.

ثم تلعثم قليلًا مع رد الشخص الذي كان على الطرف الآخر والذي قال اسمه مجردًا، وإنه ليس سعادة الوكيل، تلعثم ثانية وهو ينظر بعينيه لمعدي البرنامج نظرة ذات معنى وقال المذيع:

- مساء الخير سيدي الرئيس.

ثم تلعثم قليلًا مع رد الشخص الذي كان على الطرف الآخر والذي قال اسمه مجردًا، وإنه ليس سعادة الوكيل، تلعثم ثانية وهو ينظر بعينيه لمعدي البرنامج نظرة ذات معنى وقال المذيع:

– مساء الخير سيدي الرئيس.

وبطريقته الهادئة قال رئيس الجمهورية: إن ما حدث لمازن أمر غير مقبول، وحتى إن كان هناك خطأ ما قد ارتكبه الفتى، أما إذا أثبتت التحقيقات أن مازن لم يرتكب خطأ فالأمر يختلف.

واضاف بنفس الطريقة الهادئة: إن مدارس مصر العظيمة لن تكون مكانًا لإصابة أبنائنا بالعقد والأمراض النفسية، وإنه وإن كانت مصر- ولعدة أسباب - تمر بظروف عصيبة، ولكن جل اهتمامنا هو أبنائنا لأنهم هم مستقبل بلدنا التي نعشقها، ثم قال بنفس الطريقة الهادئة إنه يود توجيه الكلام لمازن.

متلعثمًا قلت:

- إنني أسمعك سيادة الرئيس.

فقال لي إنه يعتذر عن ما واجهته من صعوبات، وإنه يعدني ألا يتكرر ذلك الأمر لا في مدرستك ولا في أي مدرسة أخرى.

احمرت وجناتي خجلا، فتدخلت عمتي بأن شكرت الرئيس شكرًا جزيلًا، وشكرنا ثم أغلق الخط.

وأنهى المذيع تلك الفقرة، بأن مداخلة الرئيس الأب أثلجت صدورنا جميعًا.

بعد أن خرج المذيع في فاصل إعلاني توجه لي بالكلام مازحًا:

- لا تحزن يافتى إن أكبر رأس في البلد قد اعتذر لك وعلى الهواء، وأنه لأمر- لو تعلم - لجلل.

ابتسمت وشكرته وشكرت ممتنًا عمتي هديل التي احتضنتني قويًا وهي تبتسم للمرة الأولى منذ أيام.

وفي اليوم التالي انهالت المكالمات الهاتفية من أصدقائي بالمدرسة يخبرونني بأنه تم تغيير مدرس اللغة العربية الخاص بفصلنا بمدرسة شابة جديدة، سألت الله أن تكون أفضل من سابقها، وكذلك تم تعيين مدير مدرسة جديد، وأن المدرسة – بين ليلة وضحاها - قد تغيرت تماما عن سابق عهدنا بها.

الامتنان هو ذلك الشعور الذي كان يتنامى بداخلي لعمتي هديل؛ حيث إنها كانت السبب الرئيس في ذلك التغيير، وذلك التبدل الحادث بالمدرسة، فقطعت إجازتي وعدت لأرى ذلك التبدل الحادث بالمدرسة.

وجدت أن المدرسة في حالة استعداد لشئ ما، وكنت أرى هؤلاء السادة الذين يرتدون البزات الرسمية والذين كانوا دائمي التردد بشكل يومي على المدرسة، لم يكن أحد يتحدث إليَّ بشكل مباشر، ولكني لاحظت نظرات الاحترام في طريقة تعامل كل من في المدرسة تلامذة ومدرسين لي.

احتفل أصدقائي بعودتي على طريقتهم، فقد أصبحت بعد تلك الحلقة، واعتذار السيد رئيس الجمهورية لي وعلى الهواء، أشهر شخصية في المدرسة.

قال لي أحمد عصام إنه وفي اليوم الأول لأستاذة اللغة العربية الجديدة أو ميس زينب، كما كانت تفضل أن نناديها.

طلبت منا أن نقوم بترتيب جلوسنا، وكل واحد منا يعرف نفسه لها وللفصل بأن يذكر اسمه ثلاثيًا، وقال إنه تعجب أنها مابرحت تذكر أسماء التلاميذ بعد أن تعرفت إلينا لأول مرة.

قال إنها كانت، وهي تقوم بالشرح، تذكر اسم تلميذ مختلف في كل مرة وهي تناديه باسمه، وكأنها تشرح له وحده، وعلى الرغم من ذلك لم يشعر أحد بعدم اهتمامها.

وقال إنه لم يرَ في حياته كلها طريقة تدريس كتلك ،

وقال أيضًا إن تفاعلهم مع طريقة تدريسها للمادة كان في منتهى الإيجابية.

وقال إن طريقتها في شرح اللغة العربية كانت طريقة شخص يعشق ما يفعله، وليست مجرد طريقة مدرس يقوم بعمله فقط.

لكل ذلك انتظرت حصة اللغة العربية بلهفة، وكانت الحصة الخامسة بعد الفسحة وأخيرًا رأيتها.

كانت ميس زينب، كما وصفها أحمد عصام تمامًا، متوسطة القامة تميل للقصر نوعًا، نحيلة وبشرتها لها لون خمري مدهش.

وقعت في حبها للوهلة الأولى.

قابلتنا بابتسامة جميلة لؤلؤية لثغر زينته أسنانها ناصعة البياض.

ولدهشتي كانت تعرفني ونادتني بسيادة الرئيس.

وفي اليوم التالي، كانت الثلاث حصص الأوائل للغة العربية، قضيناها جميعًا في شرح مستفيض

من «ميس زينب» للقصة المقررة علينا في تلك السنة، والتي تحكي عن التاريخ النضالي لشعب مصر ومكافحتهم للاحتلال، وقد اختارت من بيننا بعض التلاميذ للقيام بأدوار تمثيلية لشخصيات تلك القصة.

وعلى الرغم من الجبس الذي مازال يربط يدي اليمنى إلا أنها أعطت لي دورا مهما في القصة بينما كانت تقوم بدور المخرج بتلك الابتسامة الرائعة، ضحكنا كثيرًا أنا وأقراني، فلقد كانت من أمتع الحصص الدراسية التي حضرتها في حياتي.

وفي نهاية اليوم وجدت عمتي تنتظرني أمام المدرسة فحكيت لعمتي عن «ميس زينب»، وكيف أنها تعاملنا جميعا وكأننا أبناؤها، وإنني أشكرها جزيلًا على مساعدتها لنا في التخلص من ذلك المدرس السابق، وإني في غاية السعادة.

***

الفصل السادس

دوري اللغة العربية

كنت أشعر بحالة غريبة من الحنين لشئ ما لا أدري كنهه.

وكان وجه جارتي راندا يطاردني في كل الموجودات وابتسامتها تضئ لي الأيام، وعلى الرغم من أنني كنت مشغولًا بالدراسة، فكنت قد اعتدت أن استذكر بوجود الحبس في يمناي.

كنت أستذكر بجد واجتهاد ليس فقط للامتحانات، بل كانت مسابقة دوري اللغة العربية المستحدثة، والتي ابتكرتها ميس زينب، تلهب حماس جميع تلاميذ المدرسة.

لكن عدم استطاعتي اللحاق بمباريات دوري كرة القدم بالمدرسة، وعلى الرغم من فوز فريقنا

بمبارياته الفائته إلا أن ذلك الأمر كان يسبب لي الكثير من الألم.

في ذلك الحين كان دوري اللغة العربية المستحدث حديث المدرسة كلها.

كانت فكرة ذلك الدوري كما شرحت لنا ميس زينب من قبل، حيث كانت قد قسمت فصلنا إلى عشر فرق، كل فريق مكون من ثلاثة طلاب، وأعطت لكل فريق حرية اختيار أعضائه.

فكان فريقي يتكون من أحمد عصام صديقي المقرب و أحمد معتصم صديقي المقرب الآخر، نفس التناغم والتفاهم بيننا كفريق كرة قدم كان نفس التناغم بيننا في مسابقة دوري اللغة العربية.

وكانت ميس زينب قد اتفقت مع باقي مدرسي اللغة العربية بالمدرسة وبموافقة وتشجيع ودعم من مدير المدرسة الجديد على أن يكون نظام المسابقة على مرحلتين بعد تقسيم كل فصل إلى فرق متنافسة كالآتي:

المرحلة الأولى وفيها تتم التصفية بين فرق الفصل الواحد بعد إجراء قرعة لتحديد الخمس مواجهات

الأولى لكل فصل بنظام خروج الفريق المهزوم، ثم يصعَد تلقائيا للدورالذي يليه الفريق المحرز أكثرعدداً من النقاط في تلك المرحلة.

ثم تقام مواجهتان لباقي الأربعة فرق الباقية يفوز فيها فريقان ثم بعد تصعيد الفريقين الفائزين تنتهي المسابقة بوجود ثلاث فرق.

يلاقي الثلاث فرق المتبقية بعضهم بنظام دوري مجمع كل فريق له مواجهتان، والفريق الفائز يحصل على جائزة الفصل، من ثم يُصعد للدور الثاني و يمثل فريقه أمام الفرق الفائزة من باقي الفصول، بالإضافة لأفضل أربعة فرق حصلت على أعلى درجات واحتلت المرتبة الثانية من الفصول، ثم يتم عمل قرعة بين كل الفرق الفائزة من الدور الأول للمرحلة الثانية.

وتكون المرحلة الثانية أيضًا بطريقة خروج المهزوم، ومن عدة أدوار متتالية للاثنى عشر فريقا البطل بالإضافة إلى أفضل أربعة فرق حاصلة على المركز الثاني.

يتكون ستة عشر فريقا بثمانية مواجهات مباشرة، يصعد منها ثماني فرق فائزة، ثم قرعة وأربعة مواجهات يفوز فيها ويصعد أربع فرق، ثم مواجهتان قبل النهائي، ثم مباراة النهائي بين الفريقين الفائزين ومواجهة للخاسرين على المركزين الثالث والرابع.

وهذا ببساطة يشبه أي دوري أبطال في كرة القدم.

جميع أسئلة مواجهات المرحلة الأولى مسئولية مدرسي كل فصل، أي أن المدرسين هم من يضع الأسئلة والطلبة المتنافسون يجيبون فقط.

بينما وفي هاتين المواجهتين النهائية ومواجهة تحديد المركزين الثالث والرابع يكون على كل فريق تجهيز الأسئلة التي سيجيب عنها الفريق المنافس.

النظام الخاص بذلك الدوري كان معقدًا، ولكن تطوع صديقنا العبقري باهر، من فصل ٣/٥ بتطوير تطبيق يعمل على نظام الأندرويد للهواتف الذكية، ويحدث باستمرار لجميع فرق الدوري.

مواعيد المباريات والفرق الفائزة وأسماء الطلبة لكل فريق وصورهم الشخصية، وكذلك خريطة

المسابقة بالنسبة للمدرسة ككل، وكانت ميس زينب هي الداعمة الرئيسة لفكرة ذلك التطبيق، بل إنها سعت جاهدة لجعل ميزانية المدرسة تدعم التنفيذ، مما أتاح المجال لباهر كي يبدع.

تعرفت على باهر أثناء إعداده لذلك التطبيق، وقد كان عبقريًا بحق، يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الهواتف الذكية، ويعي غالبية مواصفات كل فئة لكل اسم تجاري متاح بالسوق، وهو الأمر الذي كان خارج دائرة اهتماتي الشخصية تماما، كنت منبهرا من شغفه بالتكنولوجيا و إلمامه التام بها.

وقع عليَّ الاختيار لأكون مسؤلًا عن جمع معلومات وصور طلبة فرق فصلنا، ومن ثم أعطي تلك المعلومات لباهر بعد إتمام جمعها وتنسيقها ومراجعتها.

كان ذلك رأي ميس زينب وذلك بتخصيص مسئول لكل فصل لمساعدته في توفير الوقت.

انبهر باهر بهاتفي الأيفون والذي كان قد أرسله لي والدي في عيد ميلادي، وقال مبتسما:

- أنا أعشق سيري، وأحترم من يحمل ايفون حقيقة.

قلت له مجاملًا:

- تفضله.

هتف سريعًا:

- كلا، إن معي هاتفي الخاص والذي سيحدث ثورة في عالم الاتصالات.

ثم أضاف منبهرًا، وقد لمعت عيناه:

- إنه هاتف ذكي حقًا، يعرف ما أريده قبل أن أريده، بل أظن أن ذلك الهاتف يعرف ما أحتاجه أكثر مني أنا شخصيًا، بل الأدهى من ذلك أنه تقنيًا لايحتاج لشريحة اتصال للولوج إلى الإنترنت.

ثم أشار بيديه حاملا هاتفا ذهبي اللون، وأخذ يهزه بين يديه، فرأيت مطبوعًا عليه من الخلف اسمه (si14)[1]، وما أن رأيت ذلك الهاتف في يده حتى عادت شحمتا أذني تؤلمانني، ذلك الأمر الذي كنت قد نسيته منذ فترة طويلة.

نمت صداقة بيني وبين باهر، منذ جلسة العمل الأولى لى معه على الرغم من اهتمامتنا المتباينة،

١ - قد يتوجب عليك عزيزي القارئ مراجعة رواية SI14 للكاتب، فقط عند وصولك سن الثامنة عشرة.

فقد كان شخصا لطيف المعشر، ودودا دمث الخلق، وكان الملجأ لأي طالب يستفسر عن أي شئ يخص الهواتف الذكية؛ فقد كان بارعا بحق.

وقد أتم مهمته على خير مايرام، و كان التطبيق الذي ابتكره حديث المدرسة كلها، بينما كانت المنافسات على أشدها في دوري كرة القدم، وكان فريقنا يبلي بلاء حسنًا على الرغم من غيابي.

وكذلك في دوري اللغة العربية الخاص بفصلنا بمشاركتي، وكان أحمد عصام يجيب عن أسئلة النحو سريعا ثم يكتب ما أملي عليه من الإجابة عن أسئلة القراءة والقصة والتي كنت أجيدها.

مرت الأيام ومازلنا نحرز تقدمًا على كافة الأصعدة، وكانت أيام ذلك الأسبوع المتبقي من الفترة الإضافية للحبس الذي بيدي تمر وكأنها عهود.

وبالطبع لم أكن أذهب لتدريب الكرة بالأكاديمية، فكان لدي وقت فراغ كبير فتضاعفت عدد زياراتي لبيت جدي تلقائيًا.

***

الفصل السابع

راديو

وكعادتي حينما وصلت لمنزل جدي، أضأت النور ثم أضأت تلك اللمبة الخضراء الخاصة بالراديو الأثير لديَّ بعد إيصال فيشته بقابس الكهرباء كعادتي.

ونظرت له برهة مناشدًا، ثم انطلقت للعناية بنباتات الحديقة.

كنت أشعر ببعض الملل، ولا أريد العودة سريعًا إلى المنزل.

كانت راندا قد أخبرتني بالأمس، ونحن ننتهي من إعداد بيانات طلبة فصلنا قبل إعطائها لباهر لإضافتها في تطبيقه المستحدث، أنها ذاهبة إلى المنصورة لزيارة جدتها لأبيها المريضة وستمكث

هناك يومين، فذلك أيضًا ما كان من داعي للعجلة في العودة للمنزل.

جلست على كرسي جدي الهزاز وأخذت أهز نفسي جيئة وذهابًا، ومع رتابة ذلك الوضع تبدل المشهد أمامي فجأة ووجدت نفسي جالسًا في فصلي بالمدرسة، وكأن هناك احتفالا ما في فصلنا، وكنا نرتدي ملابس عادية وليست الملابس المدرسية الرسمية، وكانت ميس زينب تقف في مكان المدرس والذي كان أكثر بهاء وألوانه أكثر وضوحًا، وكان عدد التلاميذ في فصلنا أقل قليلا، وبجانبي يجلس أحمد عصام وباهر مبتسمًا ابتسامته الأثيرة، ثم باقي طلبة الفصل - لم تتضح معالمهم - خلفنا، بينما حينما نظرت على الجانب الأيمن وجدت - لدهشتي- راندا جارتي جالسة تنظر لي وتبتسم...

ومن لامكان انطلقت موسيقى كلاسيكية فاخرة ولدهشتي أيضًا نظرت لميس زينب، والتي انطلقت تشدو لي ولراندا بصوت عذب:

«امتى هتعرف امتى

اني باحبك أنت

امتى هتعرف اني باحبك أنت انت أنت

امتى هتعرف؟»

جفلت وفتحت عينيَّ، فاستيفظت من تلك السِّنةِ التي أدركتني، حيث كنت مازلت جالسًا على الكرسي الهزاز في بيت جدي، بينما كانت تلك الأغنية مازالت تترد في جنبات حجرة الصالون:

« باناجي طيفك واتمنى اشوفك،

لا يوم عطفت عليَّ

ولا أنت سائل فيَّ

ولأمتى هتحير بالي وتزود همي؟

ياللي غرامك في خيالي،

ياللي غرامك في خيالي،

وفي روحي ودمي».

قفزت من على الكرسي الهزاز فاندفعت عاليا في الهواء حينما أدركت من أين يأتي هذا الصوت، فقد كانت لمبة الراديو قد تحولت للون الأحمر والصوت يأتي رخيمًا من مكبر صوت في منتهى الجودة، بل إن الشوشرة الإستاتيكية لموالف الراديو قد أضافت روعة إلى روعة الأغنية.

تسارعت ضربات قلبي بينما مازالت المطربة تشدو:

«فضلت اخبي حبك

حبك في قلبي حبك

فضلت اخبي...

حبك في قلبي..

واصبره واواسيه

والنار بترعى فيه».

كنت قد وصلت لمرحلة غير مسبوقة من النشوة، بل كنت أتمايل فعليًا على أنغام الأغنية لروعتها، وذلك احتفالًا بعمل الراديو وحتى وصلت الأغنية لنهايتها، وحينها كنت أغني مع المطربة التي كنت

لا أعرف اسمها، وما إن انتهت الأغنية، وعلى الرغم من الحبس، صفقت بكلتا يدي كمن يحضر حفلًا موسيقيًا، ثم أتى صوت المذيع رخيمًا في مكبر الصوت الخاص بالراديو قائلًا:

حلقتنا اليوم من البرنامج بعنوان (تاريخ التعليم في مصر).

ثم موسيقى كلاسية فاخرة أعقبها صوت المذيع مرة أخرى حيث قال:

منذ عهد المصريين القدماء، وهم مهتمون بالتعليم لأنهم كانوا واعين تمامًا لأهمية التعليم في خلق حضارتهم التي مازالت تبهر البشرية.

كانوا يسمون أول مدرسة في التاريخ «برعنخ» أو بيت الحياة، أي أن المدرسة هي بيت الحياة.

ومن «بر عنخ» إلى مكتبة الإسكندرية التي أسسها الإسكندر الأكبر، والتي كانت منارة علمية للعالم القديم، وبدخول المسيحية مصر عام ٦٠ م ألحقت المدارس بالكنائس، وتم تدريس العلوم واللاهوت بها، حتى جاء الفتح الإسلامي لمصر بقيادة علاء بن العاص، وكان مسجده هو أول

مدرسة أنشئت في مصر في العصر الإسلامي، ثم كان الأزهر كمنارة علمية إسلامية ينشر العلم لباقي أرجاء المعمورة.

ولمدة ساعه كامله ظل المذيع يحكي تاريخ التعليم في مصر، الأمر الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا.

كان يتضح لي كل يوم مدى عظمة وتاريخ تلك الأرض، وكان ذلك البرنامج بمثابة رسالة من الله لتغيير وجهة نظري في البلد إجمالًا.

كنت قد أيقنت أن الأمر ليس بالصعوبة التي قد يبدو عليها وأن وضع الدولة قد يتغير إلى الأفضل ببعض التغييرات البسيطة.

تماما كما حدث لمدرستنا، وكما حدث أيضًا لمادة دراسية صعبة كاللغة العربية، بمجرد تغيير الشخص القائم على تعليمها لنا، وبتغيير طريقة التعليم نفسه انصلح حال الطلبة وأصبحت المادة الشعبية الأولى في المدرسة بمجرد تنظيم مسابقة كدوري اللغة العربية، وباستخدام الوسائل المتاحة وبأقل الإمكانيات حدث تغيير جذري.

وفجأة انقطع التيار الكهربي عن الحي فتنبهت لإضاءة هاتفي المحمول والتي كانت تنذر باتصال قادم، وكانت والدتي هي المتصلة لتطمئن عليَّ حيث إنني تأخرت كثيرًا، أجبتها سريعًا واكتشفت أنها تحاول الاتصال بي منذ فترة، ولكن الهاتف كان على الوضع الصامت فلم أعِ باتصالها، فتركت الراديو موصولا بقابس الكهرباء وذهبت مسرعا للمنزل.

وفي الأيام التالية كنت أحضر يوميا لمنزل جدي على أمل أن يعاود الراديو العمل أو أن يختار لي أغنية جميلة أخرى أو قد يكشف لي بعضًا مما خفي عليَّ من عبق ذلك البلد التاريخي، وقد كان شديد التمنع، وحيث إنني لم أكن أملك إلا الفراغ، فكان لدي من الوقت مايلزم، وبينما كان الراديو قد عاد للصمت كسابق عهدي به، وعدت أنا إلى سابق عهدي وعلى الرغم من الجبس الذي يحيط بيدي اليمنى إلا أن روتيني اليومي لم يكن ليتغير حيث كنت أدلف إلى المنزل وأشرع في ري النباتات والعناية – قدر استطاعتي بالمنزل، كل ذلك بعد أن أوصل قابس الراديو بالكهرباء، وبعد أن أسأم الانتظار، أركب دراجتي وأدور بها دورتين حول قصر السكاكيني باشا ثم اتجه إلى المنزل.

إلا أنني اكتشفت شيئا ما، وهو أن الراديو حينما هممت أن أوصله بقابس الكهرباء اكتشفت أنني تركت فيشته في القابس منذ الليلة الفائتة، ولاحظت أن تلك اللمبة الأثيرة لقلبي، والتي تدل على توصيل الكهرباء للجهاز، لم تعد تضئ فأحضرت طاولة صغيرة ثم صعدت عليها لأرى ماذا حدث لتلك اللمبة.

لم أجد شيئًا إلا التراب والذي قد غطى سطح الراديو بشكل شديد، الأمر الذي لم يخطر ببالي من قبل أن أصعد لتنظيفه من أعلى، فأخذت أنظفه ببعض المناديل الورقية المبللة، والتي أضعها دوما في شنطتي المدرسية.

ومع التنظيف كانت تتضح معالم الراديو الجمالية كلما أنظفه كان سطحه الخشبي البراق الراقي يبدو جليا ويأسر قلبي مجددا، لدهشتي وجدت زرًا كهربائيًا، كذلك الذي يوجد بالثلاجة ليضيئها عند فتحها، ولكنه أصغر قليلا، وبالفضول الذي قتل قططًا كثيرة من قبل، ضغطت عليه، ولدهشتي عادت لمبة الراديو للإضاءة ثانية، فابتسمت انتصارًا وأكملت تنظيف الراديو، وما أن نزلت إلى الأرض،

وقبل أن أجلس على الكرسي، جاءني صوت رقيق مألوف إلى حد كبير ويقول:

- مرحبًا يابني، كيف أنت وأختك وكيف والدك ووالدتك؟!

جفلت ولم أدرِ من أين يأتي ذلك الصوت، وبصوت أردته حازما ولكنه خرج مني مرتعدا قلت:

- من أنت؟ وكيف تعرفني؟

أتى الصوت مبتسمًا:

- اسمي؟ أنا راديو، وكيف أعرفك، أنا أعرفك جيدا، فأنت حفيد صديقي الراحل.

ثم اختنق الصوت قليلا وقال:

- لقد كنا نلتقي كثيرًا بعد وفاته، ولكنه في الفترة الأخيرة لم يعد يأتي على التردد الذي أعرفه، فقد أوحشني كثيرًا.

ثم عاد للابتسام ثانية قائلا:

- لقد كان جدك شخصًا رائعًا، شديد الثقافة والرقي، وكثيرا ما كنا نتبادل الآراء في الأحداث السياسية الكبيرة التي كانت تحدث، فقد كنت

مضطراً أن أعرض أحيانًا مايريدون بثه عبر موجاتي، إلا أنني قد كنت أقول لجدك الحقائق المجردة بدون تزييف، فعلى الرغم من نشأتي الهولندية، حيث صنعت في شركة غيرارد فيليبس بأمستردام[٢]، إلا أنني قد أحببت مصر وحي الظاهر كثيرًا، وأحببت ذلك الدفء الموجود في علاقات المصريين بأسرهم، الأمر الذي تغير كثيرًا عما سبق، فلقد ظل ذلك المنزل مغلقًا فترة طويلة ولم أجد من يعتني بي أو يؤنس وحدتي.

كنت في منتهى العجب لما يحدث، وكنت أقول بداخلي: أتراني جننت وأحدث نفسي؟!

ثم قررت أن أستمع أكثر من ذلك الراديو الناطق فقلت:

- وهل تعلم عمتي هديل عنك شيئًا؟

- كلا.

قالها كسدادة فلين أغلقوا بها زجاجة ثم ألقوها في بحر متلاطم الموجات كحالة عقلي واضطراب

---

٢ - Philips: شركة الكترونيات عالمية يقع المركز الرئيسي لها في امستردام هولندا.

موجات المد والجزر التي تعبث بتلافيف مخي، ثم أردفت بعد هنيهة:

- ولماذا لم تتحدث مع عمتي مثلما تكلمني الآن؟

- لأنها شديدة التعقل، وكل شئ تحسبه بلا عاطفة، كأنها تربت في مدرسة مستر جراید جرایند في رواية تشارلز ديكينز اوقات عصيبة[٣]، فهي لاتعترف بشئ إلا الحقائق المجردة، وأنا..أنا خيال.

ابتسمت فكنت قد قرأت تلك الرواية من قبل، وكنت متعاطفًا مع سيسيليا شديد التعاطف.

قال بنبرة خافتة كمن يفتقد شيئا عزيزا:

- أنت صديقي الآن يامازن، فأنا أعاني من الوحشة، فلم يعد لي قيمة كبيرة، على الرغم من أهميتي الشديدة في السابق، فكم أنقذت من أرواح حيث كانوا يستخدمون موجاتي في الاتصال بين السفن التي يحدث لها مشاكل في عرض البحر، وكنت ملتقى الساهرين ليسمعوا حفلات وأغاني أم كلثوم، بل كنت أطلق العنان لمخيلات المستمعين

٣ - Hard times: أوقات عصيبة من أهم روايات الأديب البريطاني تشارلز ديكينز صدرت عام ١٨٥٤، ويصف الكاتب فيها المجتمع الإنجليزي في فترة الثورة الصناعية.

في الأعمال الدرامية التي كانت تبث من خلال مكبرات صوتي، وكثيراً ما كنت أنقل الموسيقى والإبداع البشري الفني إلى من يتلقاه ومن يتذوقه في أطراف العالم.

ثم ابتسم وهو يقول:

- كنت أنا من أختار أغنية اسمهان خصيصا لك، وكنت متأكدًا إنك ستحبها.

وفجأة بدأت موسيقى راقصة، ثم قال الراديو تزامنًا مع صوت المغني الرائع وبلهجة أكثر بهجة قال:

- بل أريدك أن تستمتع بصوت فرانك سيناترا، فأنا أحبه كثيرًا.

وتداخل صوت المغني مع صوت الراديو وهو يقول بإنجليزية كلاسيه فاخرة:

You just too good to be true

I can't take my eyes off you

You'd be like heaven to touch

I wanna hold you so much .[٤]

استمتعت كثيرا بلحن الأغنية الراقص، وقلت للراديو: لقد كنت أسمع اللحن كثيرا في أحد إعلانات التليفزيون الشهيرة.

فاكتسى صوته بنبرة حزن شديدة وهو يقول:

- تماما كما حدث، ظهر التلفاز، وضيع كل شئ، لم أعد نجم السهرات، وانفض الجمع من حولي شيئا فشيئًا، لم أعد بتلك الأهمية السابقة حتى أهملت تماما وأصبحت كآثار القدماء فقط لأوضع في المتاحف، إلا من بعض الأعزاء مثل جدك، هم من ظلوا يستمعون لما نبثه من فقرات، وحدهم الحالمون هم من ظلوا على العهد.

تبدلت نبرة صوته ثانية لتبتهج وهو يقول:

- الآن قد وجدت صديقًا جديدًا، وإن لدي من الخبرات والأحاديث والحكايات الكثير، فقط حينما تحتاجني ستجدني جوارك.

***

٤ - أنت أروع من أن تكون حقيقيًا، أغنية لفرانك سناترا.

في تلك الليلة كنت أرغب في قص شعري، فذهبت إلى محل حلاق قريب من منزل جدي، والذي لم يكن لديه الكثير من الزبائن، جلست على أحد الكراسي الوثيرة التي يبدو عليها تأثير الزمن والموجودة بالمحل منذ الأبد، والمخصصة لانتظار الزبائن..

كان الحلاق، وعلى الرغم من شعره فاحم السواد، إلا أنه يبدو تماما كأنه أكبر من عمتي هديل كثيرًا.

كان ذلك الرجل ثرثارًا إلى أبعد الحدود يخرج من موضوع يدلف لآخر، فأردت أن أحول دفة الحديث، فسألته عن ذلك المنزل الذي يشغل بالي منذ اللحظة الأولى التي أتيت فيها هنا أنا وعمتي، والذي كان بابه مشغولا عليه علامة النجمة السداسية المميزة لليهود فقال لي بطريقتة الغريبة:

- هذا منزل موسى، لامؤاخذة، حزقيل.

وعلى غير عادته لم يزد فقلت له، وقد استبد بي الفضول،:

- ومن هو موسى حزقيل هذا؟

وكان ما قاله لي مرعبًا..

قال إن والده حكى له القصة والتي يعرفها كل سكان المنطقة، ولكن لايرددونها...

حكى لي أنه في حقبة الملكية، حيث كان اليهود يعيشون في مصر في سلام، ذلك قبل قيام دولة إسرائيل المغتصبة وحروبها العديدة مع مصر والعرب.

قال لي إن موسى هذا كان الابن الأكبر للحاخام اليهودي حزقيل، وكان شديد دماثة الخلق لا تكاد تسمع صوته إذا ما تحدث إليك، وكان شديد الخجل والحياء أيضًا، كان كل سكان الحي يحبونه حيث كان دائم المساعدة لمن يطلب عونه.

وفي تلك الفترة تعددت حالات اختفاء الأطفال، خصوصًا المسيحين منهم، وتعددت بلاغات الأمهات الثكلى في قسم الشرطة، وكان الجميع مشغولين في الأحداث السياسية المحتدمة في تلك الفترة، وكان الجميع يعانون وطأة الحرب العالمية الثانية[٥].

٥ - الحرب العالمية الثانية: حرب كونية قامت في العام ١٩٣٩ إلى العام ١٩٤٥، وكانت بين معسكرين كبيرين: معسكر الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا،

وذات ليلة خرج موسى وترك باب منزله مفتوحًا، بينما كان بعض الفتية يلعبون الكرة، وكان جرجس طالب المدرسة الإعدادية المشاغب، وهو أحد الأولاد المشاغبين في المدرسة والحي كله. وبينما كان يلعب بالكرة مع أقرانه قذفت الكرة بداخل منزل الحاخام حزقيل، و كان عليه إحضارها لأن صاحب الكرة لم يكن لينتظر أحد عائلة حزقيل ليعيدوا له الكرة، فلم يكن هناك بد لجرجس إلا اقتحام المنزل لإحضارها.

لا تحتاج لخيال خصب حتى تستشعر تلك اللحظات المهيبة التي قضاها جرجس وهو يجرب اقتحام خصوصيات ومنزل عائلة حزقيل.

ولدهشة جرجس قد وجد الباب الحديدي مفتوحًا فولج إلى البيت، وبعد قليل خرج يجري وقد نسي الكرة بالداخل وانطلق ليخبر والديه أنه وجد حذاء وملابس أخيه ميلاد المتغيب منذ أسابيع...

ومعسكر المحور بقيادة ألمانيا النازية وإيطاليا واليابان، وانتهت بهزيمة معسكر المحور وتأسيس الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي وتقسيم ألمانيا إلى دولتين شرقية وغربية يفصل بينهما سور برلين والذي تم هدمه وتوحيد الألمانيتين في العام ١٩٩٠.

وكانت تلك الحادثة هي الشرارة الأولى للنار التي ظلت مستعرة لفترة طويلة، حيث جاءت الشرطة بناء على بلاغ من والدي جرجس وميلاد المتغيب، وبتفتيش المنزل وجدوا أدوات تعذيب وبقايا أجزاء آدمية لعدة أطفال، حيث كانت تمارس بعض الطقوس الدينية اليهودية المحرمة والمجرمة...

صدم الحي كله حينما قبضت الشرطة على موسى ابن الحاخام حزقيل، ووجهت إليه تهم الخطف والقتل العمد، حيث كان يخطف الأطفال المسيحيين ثم يستخدم دمهم في صناعة الخبز[٦].

حوكم موسى وصدر ضدة حكم بالاعدام وهرب ابوه حزقيل بمساعدة السلطات الإنجليزية وقتها، حيث كانت ماتزال مصر تحت الاحتلال البريطاني إلى فلسطين ضمن حملات تهجير اليهود واستيطانهم في تلك الأرض التي استلبوها من أهلها.

---

٦ - فرية الدم: أسطورة منشرة عن اليهود في العالم، وهي استخدامهم دم الأطفال المسيحيين بعد ذبحهم، في عجن خبز مخصص للاحتفالات الدينية، هذه الأسطورة منتشرة انتشارا كبيرا في العالم، وإن لم تكن هناك أدلة ثابتة على تؤكد حقيقتها.

وانتشرت الأساطير المتعلقة بذلك المنزل، وانتشرت الإشاعات حيث يقسم الجيران أنهم يسمعون صرخات أطفال تعذب صادرة من البيت في كل شتاء.

وبعض الأطفال يحكون عن مشاهدتهم لطفل يخرج من ذلك البيت ويريد اللعب معهم ولكن مشكلتهم الدائمة معه هو وجود جرح عميق لا ينزف في رقبة ذلك الطفل، كما أن عينيه كانتا حمراوتين بشدة.

نفس الوصف لذلك الطفل سمعناه من عدة أطفال وفي سنين متواترة.

ومن يومها وإلى الآن ظل المنزل مغلقًا، وأظنه سيظل مغلقًا إلى الأبد.

كان قد استبد بي الرعب وأنا أستمع لتلك الحكاية الرهيبة، والتي كانت تؤكد إحساسي الغريب بذلك المنزل المغلق.

كان الحلاق قد انتهى من حلاقة شعري فأقرضته ماله ولمحت ابتسامة شريرة في وجهه العجوز، وللمرة الأولى منذ فترة لم أدر تلكم الدورتين الأبديتين

حول قصر السكاكيني، بل ذهبت مسرعا إلى المنزل، وفي تلك الليلة نمت والحجرة مضاءة وكنت لا أستطيع أن اأغمض عيني إلا بصعوبة، وما إن أغفو حتى أستيقظ فزعا مرة أخرى، لعنت ذلك الحلاق في سري مرارًا وأخذت أردد آية الكرسي عدة مرات حتى غلبني النوم.

***

الفصل الثامن

المباراة النهائية

كانت المبارة الأولى التي لعبتها، بعد أن قرر الطبيب إزالة ذلك الجبس، رائعة.

كنت متعطشًا للعب الكرة ككاتب موهوب فُقد على جزيرة نائية ولم يجد قلمًا ليخط به إبداعاته ثم فجأة وجد ذلك القلم.

في المبارتين اللتين لعبتهما مباراة دور الثمانية وقبل النهائية أحرزت ستة أهداف، أربعة منهم في مباراة دور الثمانية والهدفين اللذين فزنا بهما في قبل النهائي أحدهما من ضربة حرة...

مرت امتحانات نصف العام بسلام، وكنت أستذكر بجد لتحصيل ما فاتني من دروس خلال تلك الفترة التي كان فيها ذراعاي بالجبس، وكانت

راندا تقوم بتشجيعي وإحضار بعض الحلوى والشيكولاتة من أجلي، وكنت أحضر لها «كب كيك»، والتي كانت تعشقه، وفي كثير من الأوقات كانت تأتي بعد أن تستأذن والدتها كي تستذكر دروسها معي، كنت أحب وجودها جواري كثيرا.

كنت في غاية السعادة في تلك الفترة ونسيت مؤقتا منزل جدي والنباتات المزروعة هناك والراديو العزيز..

انتهت الامتحانات، و جاءت إجازة منتصف العام، سافرت راندا إلى المنصورة لتقضي الإجازة في منزل جدتها وكانت تهاتفني يوميًا... ثم عدت كسابق عهدي للاعتناء بمنزل جدي، وفي يوم هاتفتني عمتي هديل قائلة إنها ستقلني في الغد لنذهب إلى معرض القاهرة الدولي للكتاب.

لم أنم ليلتها، وكنت أبحث في الإنترنت عن معرض الكتاب، ولم أكن أعرف عنه شيئًا من قبل، وصلت دهشتي ذروتها حيث عرفت أنها الدورة الرابعة والستون، أي أن ذلك المعرض يقام منذ أربعة وستين عامًا وأنا لا أعرف عنه شيئًا.

كنت أفكر بينما أقرأ المعلومات المكتوبة عن معرض الكتاب، أن مصر لازالت مصرة على إدهاشي الدائم، وإن الحالة غير الجيدة الحالية للدولة ليست إلا فترة مؤقتة، وإنها كما كانت ضاربة في عمق التاريخ، فستستطيع ببساطة أن تعود كسابق عهدها، وأدركت بساطة أن الأمور ستصبح أفضل كثيراً ببعض المجهود القليل.

لم تكن عمتي هديل سعيدة طوال المشوار الطويل حتى وصلنا إلى منطقة المعارض بالتجمع الخامس، ولم يعجبها المعرض ولا البوابات ولا طريقة التفتيش، الأمر الذي وجدت أنه لابأس به، بل بالعكس قد انبهرت بالبنايات والتنظيم الذي هناك، وقالت لي عمتي جملة لم أفهمها جيداً:

- إن هذا المعرض بلاروح، شئ شكله مهندم وجميل ولكن بلا مضمون.

لم أعلن لها أنني أعجبت بالمعرض، وأنني أبحث عن إصدارات مختلفة للراحل د. أحمد خالد توفيق.

لم نمكث طويلا بالمعرض بناءً على رغبة عمتي، هي فقط انتظرت حتى فرغت مما أريد شراءه من كتب وأحضرت لي بعض الشطائر وذهبنا..

ولعدة أيام تالية كان لدي كنز ثمين للقراءة، كنت اكتشفت سلسلة أخيرة لم أكن أعرف عنها شيئاً تدعى فانتازيا، وحينما قرأت عدة إصدارات منها مستمتعًا كنت أدرك أنها من أهم ما كتب الأديب الراحل إن لم تكن السلسة الأهم...

مرت الإجازة سريعًا وعدت للمدرسة، كنت أشتاق إلى أصدقائي كثيرًا.

ظهرت نتيجة الفصل الدراسي الأول وحصلت على مائة ستة وأربعين درجة من إجمالي مائة وخمسين، قل درجاتي أربع درجات عن الدرجة النهائية، وكنت غير معتاد على ذلك من قبل..

بينما كان أصدقائي يحتفلون كنت أشعر بغصة، تلاشت سريعا بمكالمة من راندا حيث هتفت فرحة حينما قلت لها نتيجتي النهائية، وأقسمت أنها لم تتوقع نتيجة أفضل، وقالت لي:

- عليك ألا تنسى أننا كنا نسابق الزمن في الاستذكار بعد فك ذلك الحبس.

كنت قد نسيت أن يدي كانت مكسورة لفترة قبل الامتحان.

احتفلت مع أصدقائي، وما إن ذهبت إلى المنزل حتى وجدت راندا ووالديها وعمتي وأمي في استقبالي مهنئين، الأمر الذي رفع معنوياتي بشدة، بل قد وصلت معنوياتي إلى عنان السماء بمكالمة والدي الهاتفية، والتي كان يهنئني فيها ويحثني على بذل مجهود أكبر.

تم تحديد مباراة نهائي دوري المدرسة في الأسبوع التالي، وكنا على أتم الاستعداد، كانت مباراة ممتعة أحرزنا فيها ثلاثة أهداف للاشئ... أعطونا ميداليات شرفية و شهادات استثمار بنكية بقيمة مائة جنيه لكل لاعب في الفريق، كنا نتمنى أن نحصل على شهادات تقدير من المدرسة بدلا منها، ولكن هذا ماحدث..

وبعد ذلك بيوم واحد طلبنا مدرس التربية البدنية من الفصل ليعلمنا بموعد مباراة كأس الإدارة التعليمية مع فريق مدرسة عمر مكرم، الأمر كان مفاجئًا لنا، وقال إن علينا أن نحدد أسماء اللاعبين المشاركين في الفريق، وكذلك اختيار لاعب إضافي، ثم تحديد لون القميص الذي سنلعب به، وإخباره بذلك في مدة أقصاها يومين، وأخبرنا

كذلك أنه تزامنًا مع موعد المباراة سيتم الاحتفال بختام النشاط الرياضي بالإدارة، ونتيجة لذلك كان قد انقسم فريقنا نفسه فريقين أحدهما يريد أن نرتدي قمصان فريق برشلونة الكاتالوني، وكان يتزعم هذا الفريق عماد وأحمد عصام، وفريق أخر يريد أن نشترى قمصان الفريق الملكي ريال مدريد، وكان من مؤيدي هذا الفريق وليد وأحمد معتصم، بينما حارس المرمى مصطفى خارج تلك المفاضلة وقد استقر رأيه على ارتداء قميص طوبي فسفوري، وبينما كان مثلي لا يريد أحد الاقتراحين..

قررنا إرجاء التصويت على لون القميص إلى وقت لاحق.

وفي إحدى الليالي، وبينما كنت منتظراً تمرين كرة القدم بالأكاديمية، كانت والدتي قد أوصلتني باكرًا في ذلك اليوم لأنها ذاهبة إلى منزل جدتي المجاور للنادي، وكانت ستعود لتأخذني بعد انتهاء التمرين.

مكثت أنتظر بكافيتريا النادي، والتي كانت تعرض مباراة في الدوري الإيطالي، فجلست أشاهدها وأشرب عصير تفاح.

وحينها فقط وجدت ضالتي، واستقر رأيي على شراء قمصان ذلك الفريق، والذي كان أحد طرفي تلك المباراة التي أشاهدها، وبعد أن سمعت مذيع المباراة يقول إنه فريق نادي «لاتسيو» الإيطالي، ولحسن الحظ فاز فريق نادي لاتسيو بهدفين لهدف في تلك المباراة على منافسه العتيد نادي نابولي.

وفي اليوم التالي، ونحن في المدرسة أنبهر أقراني حينما أريتهم صورة قميص نادي لاتسيو، على شاشة التابلت الخاص بي، وافقوا جميعا عليه بلا جدال، فقد كان القميص رائعًا بالفعل.

- الخطوة القادمة هي أن نبحث في الإنترنت عن محل يبيع قمصان الفريق.

قلتها لهم بلهجة القائد بعد أن تقمصت روح أحمد عصام للحظات، بينما كنت أعي أن رحلة البحث عن قمصان فريق نادي لاتسيو، والتي لم تكن منتشرة، يعد أمرًا عسيرا، ولكننا قد بلغ بنا الحماس مبلغه، وأصر جميعنا على إحضار تلك القمصان لنرتديها في المباراة.

بحثنا كثيرًا جدًّا في معظم محلات الملابس الرياضية، وعلى الإنترنت كذلك، ولكن دون جدوى.

وجدنا متجرًا وحيدًا فقط يبيعها على الإنترنت، ولكن لم يكن هناك مقاسات لليافعين، بل كانت جميع المقاسات كبيرة للبالغين فقط.

تراجع أصدقائي نهائيا عن فكرتهم السابقة في ارتداء قمصان أي من ناديي برشلونة أو ريال مدريد، تغير رأيهم تماما وأصبحوا مثلي في منتهى الإصرار على الحصول على تلك القمصان.

ولم يتبق غير أربعة أيام على المباراة النهائية للمنطقة التعليمية مع فريق مدرسة عمر مكرم.

كنت أحكي لراندا، وكانت تدعو الله أن نجد محلًا يبيع قمصان فريق نادي لاتسيو، بعد أن أخذت تبحث عنه هي الأخرى.

وفي المساء كنت أهاتف والدي في اتصال مصور، واحكي له عن تلك المباراة، واستقرار رأينا على اختيار قميص نادي لاتسيو لارتدائه في المباراة النهائية، وعلى الرغم من أننا وإلى الآن وقبل أربعة أيام من المباراة، لم نجد مكانا يبيعه ولا حتى على الإنترنت.

ابتسم والدي وسألني عن عدد لاعبي فريقنا ودوَّن شيئًا ما في ورقة بجواره ثم سألني عن أحوالنا وطلب مني أن أقوم بنداء والدتي لمكالمته، فلما جاءت والدتي تركت لهما الغرفة التي بها الحاسوب وذهبت لأراجع دروس اللغة العربية.

تذكرت كلمات ميس زينب حيث كانت دائما ما تقول لنا إنه من المهم جدًّا الاهتمام بدراسة ومذاكرة اللغة العربية من أجلها، ومن أجل مسابقة دوري اللغة العربية المستحدثة بمدرستنا، ولكنها كانت دائما ما تقول أيضًا إن الأهم من ذلك هو أن نهتم بمذاكرة ودراسة باقي المواد الأخرى لأننا في نهاية العام سنقوم بالاختبار في كل الموادالدراسية أيضًا، وليس في اللغة العربية فقط.

فلذلك ومن أجل ميس زينب، قررت أن استذكر مادة الدراسات الاجتماعية على الرغم من رغبتي الانتهاء من مقررات القراءة ومراجعة القصة واختيار أسئلة يكون من الصعب على الفريق المنافس إجابتها.

وبعد يومين ونحن نسجل أسماء اللاعبين لدى مدرس التربية البدنية، كنا قد يئسنا تمامًا من الحصول على قمصان نادي لاتسيو، وقررنا بكل أسى أن نقوم بقرعة لاختيار قميص أحد الفريقين الأسبانيين، قمنا بعمل القرعة بلا مبالاة، والحزن يخيم على تصرفاتنا حتى ونحن نتدرب أيضًا، كان الفتور هو اللاعب رقم ثمانية في الفريق.

انتهى اليوم الدراسي وانتهى تدريب فريقنا، وبعد التدريب ذهبت إلى المنزل، وحيث إنني كنت في حالة نفسية سيئة، لم أملك ذلك البال الرائق لإجابة والدتي عن حالي وأحوال المدرسة، ثم قالت والدتي بلهجة ذات معنى:

- هل استقر قراركم على قميص إحدى الفرق لارتدائه في تلك المباراة؟

زفرت زفرة قوية، لم يكن ذلك من طبعي حين التحدث مع أي من والدي، ولكن حالتي النفسية كانت في أدنى مستوى لها فقلت:

- قمنا بعمل قرعة و كسبتها برشلونة.

قالت وهي تبتسم، مما أثار غيظي لأن الموقف لايحتمل أي ابتسام:

- ولكن والدك له رأي آخر؟

متسائلًا بلهفة:

- ماذا تعنين ياأمي؟ ولماذا تبتسمين وأنا في مثل تلك الحالة من الضيق؟

تحولت ابتسامتها لضحكة، فازددت غيظًا، فأشارت لي بيديها أن هوِّن على نفسي، ثم قالت ضاحكة:

- لقد وصلنا للتوِّ طرد بريدي مسجل من أبيك باسمك.

ثم أشاحت بيدها وأردفت:

- كلا أنا لم أفتحه لأنه طرد شخصي أرسله لك والدك، ولا يجوز لي الاطلاع على أمر خاص بك ووالدك، وإن كنت أعرف ما بداخله وهو سبب ابتسامتي تلك.

تلقفت الطرد منها سريعًا، وقلبي يتواثب بين ضلوعي، وكان عبارة عن كيس بلاستيكي كبير

داخل كرتونة ضخمة، وما إن فتحته حتى تواثبت فرحًا؛ كان الكيس بداخله سبعة أطقم، قميص وسروال قصير، لفريق نادي لاتسيو من نفس القياس، وكذلك قميص طوبي فسفوري وقفازين لحارس المرمى من نفس القياس، والأهم من ذلك كانت هناك رسالة مكتوبة بخط اليد من والدي تقول:

«أحضروا الكأس من أجلنا».

ترغرغت عيناي بالدموع، وللمرة الألف تمنيت لو كان أبي معنا.

حضنت والدتي وهاتفت راندا فجاءت من شقتهم، وما أإن رأت القمصان حتى صاحت فرحة، كانت سعادتنا لا توصف.

ثم هاتفت زملائي، وفي كل مكالمة كنت أسمع صيحات الفرح من كل واحد منهم، أخذ كل واحد منهم يحتفل بطريقته الخاصة، وتواعدنا أن نلتقي الليلة في النادي حيث أكاديمية كرة القدم التي ألعب بها، وتعاهدنا أيضًا أن نبذل كل جهدنا لكي نحصل على تلك الكأس.

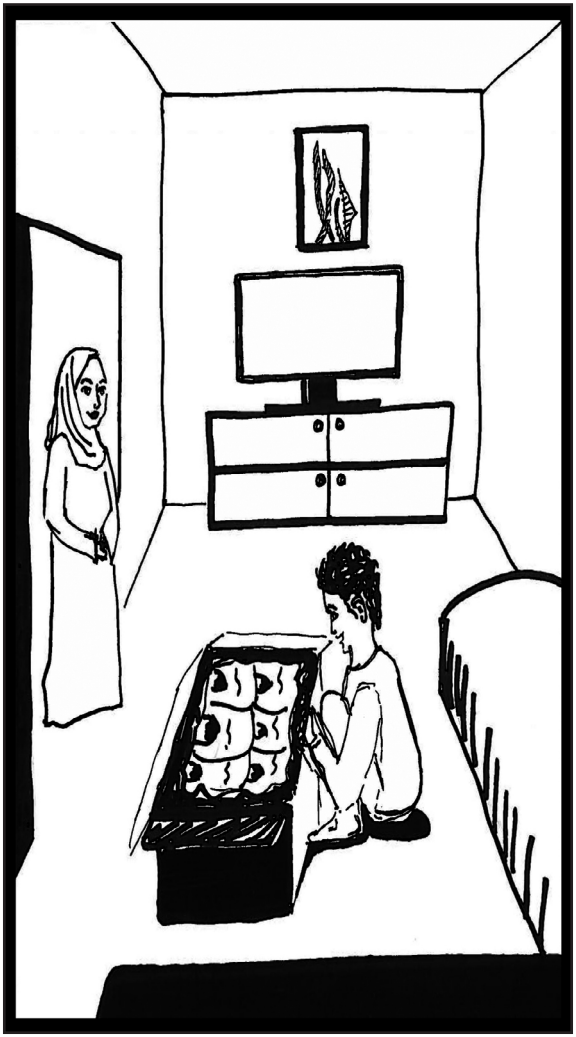

كانت هناك رسالة مكتوبة بخط اليد من
والدي تقول:

«أحضروا الكأس من أجلنا».

فوجئت بعد التمرين بأصدقائي قد جمعوا مبلغًا ماليًا ووضعوه في مظروف وأعطاه لي أحمد عصام وقال:

- كنا قد اتفقنا على أن كل واحد منا سيشتري القميص الذي سنتفق عليه للعب تلك المباراة، وتفضل والدك بإحضارها لنا، نحن لم نعرف سعر تلك القمصان، ولكن قد جمعنا ما كنا سندفعه ثمنًا لتلك التي كنا سنتفق على ارتدائها، ونحن في منتهى الامتنان لوالدك، أعطه تلك النقود وبلغه تحياتنا جميعًا.

كنت لا أعرف التصرف الأمثل في تلك الأمور فأذعنت لرأيهم، وأضفت لتلك النقود مثلهم نصيبي أنا الآخر من النقود التي ادخرتها من مصروفي اليومي، وأعطيت النقود لوالدتي ثم حكيت لها ما حدث من أصدقائي وما فعلته أنا وقلت لها إن توصل تلك النقود لوالدي، قالت لي أمي إن أبي قد أحضر تلك القمصان بناء على رغبتنا، وهو كوالدهم مثلما هو والدي وليعتبروا القمصان هدية منه، قلت لها إن هذا هو رأي قائد الفريق ونحن قد امتثلنا لرأيه. فصمتت والدتي وأخبرتني

أنها ستفعل. وكان باهر هو اللاعب السابع الذي استقر رأينا على إضافته للفريق كنوع من الدعم بعد خروجه من المشفى بعد تعافيه من محاولة خرقاء للانتحار، كان يقول إن سببها هذا الهاتف المشؤم.

وبمشاركة مادية من عمتي هديل، ومشاركة فنية من ميس زينب، انتهينا من طباعة الأرقام والأسماء الخاصة بنا على القمصان.

أرسلت القمصان لأحد محلات التنظيف الجاف، وأصبح كل شئ جاهز للمباراة.

عادت لي القمصان من المغسلة مرتبة بعد غسلها وكيها، مررت على أقراني لأخذ القمصان معي، وما إن نزلنا من العمارة التي بها شقتي حتى وجدت عمتي هديل منتظرة لتقلني بسيارتها إلى المدرسة.

كانت قد جرت العادة على إقامة مباريات الدوري المدرسي من شوطين مدة كل منهما خمس عشرة دقيقة، ويكون الشوط الأول في الربع ساعة الأخيرة من الحصة الدراسية الرابعة، والشوط الثاني في الربع ساعة التي بها الفسحة.

ولحظي العثر دائمًا، كانت كل الأهداف التي أحرزها تكون في الشوط الأول للمباريات، والتي لم يشاهدها أحد التلاميذ، حيث كان الشوط الأول دائما بدون جمهور لوجود الطلبة بالحصة الدراسية الرابعة.

يوم المباراة كنا في أتم اللياقة الذهنية والتركيز، إلا أن قلبي قد خفق بشدة حينما صعد مدرس التربية البدنية لفصلنا ليأخذنا للنزول لحجرة اللياقة البدنية حتى نستعد للمباراة ونرتدي قمصان اللعب، وكي نقوم بعمليات الإحماء أيضًا .

كان القرارالسابق للمباراة أن يتم مد فترة الفسحة إلى نصف ساعة هي مدة المباراة كاملة، وحتى يتمكن التلاميذ من مشاهدتها والتي كانت على ملعب مدرستنا، أهم وأفضل ملعب في الإدارة التعليمية كلها، بعد إقامة مراسم حفلة نهاية الموسم الرياضي.

حضر كل من وكيل وزارة التربية والتعليم الذي كان لي معه سابق معرفة، ومدير الإدارة التعليمية، ورئيس النشاط الرياضي بالإدارة التعليمية

ومدرسي التربية البدنية بالإدارة، ورئيس اتحاد الطلاب، وكذلك مقرر اللجنة الرياضية وجلس المدرسون والحضور، لمشاهدة عمليات الإحماء.

عدنا إلى حجرة التربية البدنية ثانية لارتداء قمصان فريق لاتسيو بعدما تزيينها بالأرقام وأسمائنا الذهبية والتي قامت بتصميمها العزيزةميس زينب. أعطانا أستاذ عبد الجليل مدرس التربية البدنية دفعة معنوية، ثم قال بلهجة حنونة على غير عادته الصارمة:

- افعلوها من أجلنا أيها الرجال، نحن نثق في قدراتكم وإمكانياتكم، افعلوا ما في وسعكم في المباراة، ابذلوا قصارى جهدكم واعلموا أننا جميعًا خلفكم نشد من أزركم، وننتظر تلك الكأس.

ثم صافح كل منا بطريقة «أعطني خمسة» الأمريكية، فاندفعنا سريعًا إلى أرض الملعب.

ضجت المدرسة بأصوات تشجيع زملائنا، وعلا صوت الهتاف على أنغام الأغنية الشهيرة والتي بدَّلوا كلماتها إلى النداء بأسماء لاعبي الفريق كل باسمه حتى جاء دوري في النداء فضجت المدرسة كلها بالتصفيق.

وقف كل الأساتذة أثناء عزف السلام الوطني، ثم تجمع فريقينا لالتقاط الصور التذكارية، أحمد عصام وأحمد معتصم ومصطفى وعماد والعضو الجديد باهر وأنا.

تقدمت لإجراء قرعة الملعب مع قائد الفريق المنافس، كان أحمد قد تخلى لي عن شارة القيادة في تلك المباراة، ولمحت نظرة الذعر في عيني قائد فريقهم مما أعطاني الدفعة المعنوية لأن أصيح في أصدقائي محفزاً بعدما كسبت القرعة.

بدأت المباراة وتناقلنا الكرة فيما بيننا أربع نقلات، وفوجئ الجميع بأحمد عصام منفرداً بحارس الفريق المنافس والذي كان من البراعة حيث احتضن الكرة قبل أن يصل إليها أحمد.

كان الفريق المنافس يدافع عن مرماه باستماتة، كراتنا العرضية يتم قطعها، بالإضافة إلى اللعب الخشن وكثرة الأخطاء التي يفعلونها ضدنا.

كرة أخرى انطلقت بها من الجهة اليسرى وقمت برفع الكرة، لعبها عماد رأسية رائعة ارتطمت بالعارضة وسط آهات الجماهير التي أحست

أن الهدف الأول قد اقترب وجن جنونهم في التشجيع.

انتهى الشوط الأول بالتعادل السلبي عكس سير المباراة تمامًا نخرجنا لشرب المياه.

قابلنا أستاذ عبد الجليل وأخبرنا أن حسنًا ما فعلنا، وعلينا أن نركز قليلًا لإحراز الهدف، نبهنا لبعض الأخطاء البسيطة التي وقعنا فيها ثم تمنى لنا التوفيق، ثم جاءت ميس زينب و تمنت لنا التوفيق أيضًا.

بدأ الشوط الثاني بضربة بداية من الفريق المنافس، قطعها أحمد معتصم وأعطاها لي فراوغت لاعبين وأعطيتها لعماد الذي راوغ لاعبا آخر وراوغ حارس المرمى ولم يتبق إلا أن يسكنها الشباك، وفي مشهد محبط جعل كل من بالملعب يضع يده على رأسه، ارتطمت كرته وسط ذهولنا جميعًا بالقائم الأيسر ثم خرجت من الملعب، نظرت لطاولة المدرسين فوجدت الميس زينب تضع يدها على رأسها.

طالبت زملائي بالعودة سريعًا للدفاع، وكان حارس مرمى الفريق المنافس قد استغل حالة

الإحباط التي تملكتنا للحظات، وأرسل الكرة سريعًا لأحد لاعبيهم من جهة اليمين حيث انطلق بها سريعا، فانطلقت أجري خلفه وأنا أشير إلى زملائي إلى العودة سريعاً، ولكن لاعبي الفريق المنافس كانوا أسرع منا جميعًا.

رفع جناحهم الأيمن الكرة عاليًا فقز أحد لاعبيهم للعبها بالرأس فأخطأها، فأعدتها أنا إلى منتصف الملعب بشكل خاطئ، فقابلها أحد لاعبيهم وسددها فارتطمت بساقه بدلا من وجه قدمه، ثم ارتطمت أيضًا بجسد أحمد عصام فتغير اتجاهها وغالطت الحارس مصطفى وسكنت الشباك.

وكان الهدف الأول للفريق المنافس.

للحظة شعرت بالبرد يسري في مؤخرة عنقي، وخفق قلبي بشدة، بينما كان لاعبو الفريق المنافس يحتفلون بهدفهم الغريب هذا والذي لايمثل سير المباراة بحال.

وفي اللحظات التالية فقدنا فيها السيطرة على مجريات اللعب، وسكت تلاميذ المدرسة عن تشجعينا للحظات، أخطأنا كثيرًا في نقل الكرة،

ومعظم كراتنا كانت تقطع أو تتفتت تحت دفاعات الفريق المنافس الشرسة.

هاجم الفريق المنافس بشدة في تلك اللحظات، وأخرج الحارس مصطفى عدة كرات كانت كفيلة بقتل المباراة تمامًا.

حانت مني نظرة مناشدة لميس زينب والتي جلست بالطاولة الخاصة بالمدرسين، نظرة لعينها، ونظرة لكأس البطولة حيث وضع على منصة التتويج، وشعرت أن المسافة بيننا تتباعد بمرور الدقائق.

كدت أبكي وأنا أتخيل وجه أبي، وما فعله من أجلنا، لحظات قليلة طويلة ثم تمالكت نفسي ثانية،

بينما لم يدم الصمت طويلًا، حتى عادت الهتافات بأسمائنا على نفس تلك الأغنية الشهيرة.

كانت ميس زينب هي من يشير إلى التلاميذ إلى تشجيعنا، وعلى صوت الهتاف بأعلى ما يمكنهم، وكان كل من لاعبينا يدعم الآخر، بذلنا أقصى مجهودنا وما نستطيع فعله، وكانت هجماتنا تضيع بين أقدام مدافعيهم، وما يمر من هجمات يتكفل به حارسهم البارع.

مرت الدقائق بسرعة، وكادت المباراة أن تلفظ انفاسها الأخيرة، وكنت قد سئمت من تكتلهم في الدفاع المستميت أمام مرماهم، فما كان مني إلا أن عدت للخلف لإعداد الكرة لزملائي، والتخلي عن مركزي كرأس حربة، وللهرب من الرقابة اللصيقة التي فرضوها عليَّ، و حتى أستطيع أن أسحب أحد اللاعبين المتكتلين أمام مرماهم.

أرسلت كرة بينية لعماد قام برفعها في منطقة جزاء الخصم تكفل أحد لاعبيهم بإرجاعها بحركة خاطئة إلى وسط الملعب، وللمرة الأولى في المباراة، تهيأت الكرة أمامي والطريق إلى المرمى مفتوح، وضعت في تلك التسديدة كل قوتي، وقبل أن تهبط الكرة إلى الأرض سددتها...

كان المشهد مهيباً، توقف له قلوب تلاميذ مدرستنا لثوان، بينما كرتي متجهة لمرمى الفريق المنافس ثابتة لا تقوم بالدوران ككل الكرات.

ومما جعل شكل اللعبة اجمل لمن رآها هو عدم تحرك الحارس حيث وقف يشاهدها مثلهم دون أن يحرك ساكناً، كرة مراوغة باغتته ودخلت في الزاوية اليمنى من المرمى.

كان المشهد مهيباً حيث انفجر الملعب بالهتاف وتخلى المدرسون عن وقارهم وأخذوا بالتواثب والتصفيق، كان احتفالا قصيرا من فريقنا حيث عدنا سريعا نطلب اللعب حيث شعرنا أن النحس قد كسر بذلك الهدف.

وانهارالفريق المنافس حيث كان الهدف بمثابة دلو من الثلج وقع عليهم، فلم يكن الباقي إلا لحظات قليلة وليكونوا قد انتزعوا الكأس منا، ويتوجوا بالبطولة ومن أرضنا وعلى ملعبنا.

كنت أصيح في زملائي أننا نستطيع إنهاء المباراة في وقتها الأصلي دون الاحتياج لوقت إضافي آخر، كنت قد وصلت لأقصى مرحلة من الحماس.

وللمرة الثانية في نفس الشوط يعيد الفريق المنافس لعب الكرة من نقطة البداية! وما هي إلا مجرد نقلتين ثم قام أحمد معتصم بقطع الكرة وإعادتها إلى الحارس مصطفى الذي نقل الكرة بدوره إلى عماد الذي لعبها باحترافية عالية إلى أحمد عصام، رأيت حروف اسم والدةعصام الذهبية على ظهر قميصه وهو يمررها لي بكعب قدمه حتى وصلت الكرة إليَّ بصورة انتزعت آهات التلاميذ.

تسلمت الكرة ورفعت عيني فوجدت عمادا قد انطلق سريعا واتخذ موقعا ممتازًا، فمررت له كرة بينية والتي أودعها بباطن قدمه اليسرى في أقصى يمين المرمى.

حاول الحارس البارع للفريق المنافس أن يصل لها دون جدوى واحتضنت الشباك لتعلن عن الهدف الثاني قبل دقيقة ونصف من نهاية المباراة.

ضجت المدرسة بالهتاف، وارتجت أرضية الملعب، قمنا جميعًا بالسجود لله شكرًا على هذا الهدف الرائع، بينما قام عماد، ولدهشتي، برسم الصليب على صدره، وكانت تلك هي المرة الأولى التي عرفت فيها أن عماد مسيحي.

وللمرة الثالثة خلال نفس الشوط يقوم لاعبو الفريق المنافس بركل الكرة من نقطة البداية، وكان الفريق المنافس قد انهار بدنيًا ونفسيًا، وكنا نتلاعب بالكرة جيدًا، وفي خلال الثواني القليلة الباقية قدمنا فاصلا ممتعا من كرة القدم أأمتع جماهير مدرستنا التي مابرحت تنادي على كل لاعب باسمه.

تقدمت بالكرة ناحية المرمى، وكدت أن أحرز الهدف الثالث لكن تمت إعاقتي من الخلف ليعلن الحكم عن ضربة جزاء مستحقة، وإشهار بطاقة حمراء لمدافع المنافس.

قام بتسديدها مختص ضربات الجزاء أحمد معتصم، والذي أودعها الشباك قبل لحظات من اطلاق حكم المباراة لصافرة النهاية، والتي ما إن انطلقت حتى نزل كل تلاميذ المدرسة إلى الملعب وقاموا بحملنا على الأعناق.

اختلط الحابل بالنابل وتجمع التلاميذ جميعهم في ملعب المباراة.

استغرق الأمر بعض الوقت لإعادة النظام وإعادة الجماهير المحتفلة إلى أماكنها، مرت عدة دقائق حتى عاد النظام كما كان، وانتظرنا توزيع الجوائز، كان جميع مدرسي المدرسة في استقبالنا، وكنا نشعر بالزهو، صنعنا ممرا شرفيا للفريق المهزوم قبل أن تنطلق الاحتفالات، وأخيرا رفعنا كأس البطولة.

***

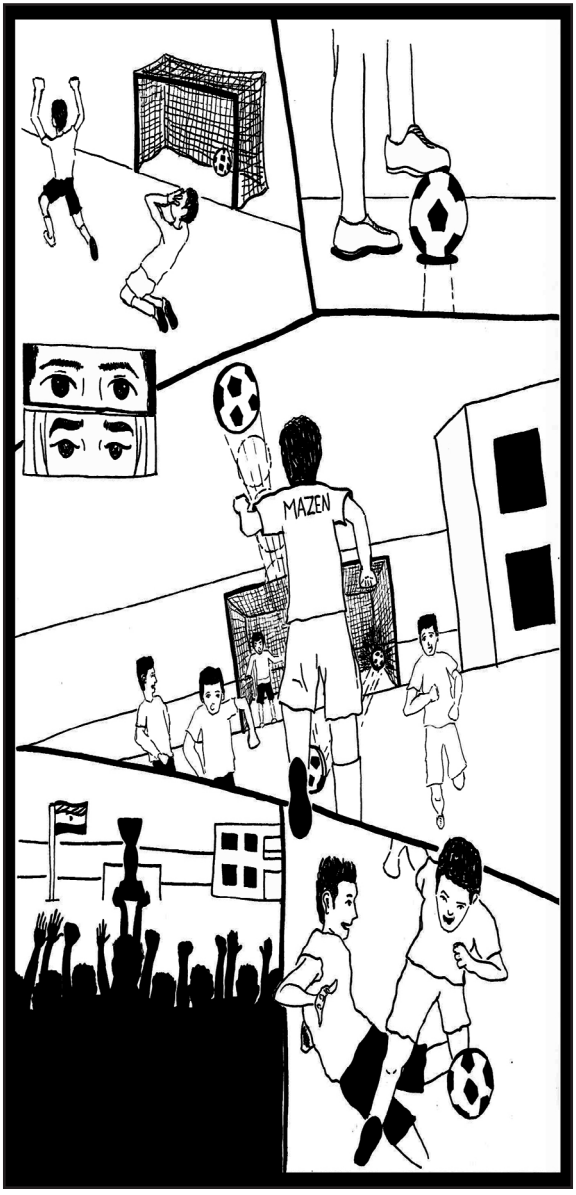
MAZEN

كنـا قبل نهائي دوري اللغة العربية بين فريقنا، وهو الفريق الفائز في جميع مبارياته السابقة، وفريق البنات من فصل ٦/٣ بيوم، قد تم تكريم فريقنا لكرة القدم والحائزعلى بطولة الإدارة.

قال مدير المدرسة وهو يكرم فريقنا لكرة القدم:

- أنا، وللمرة الأولى منذ أن عملت في سلك التدريس ثم الإدارة، لم يحدث أن يكون هناك ثلاثة طلبة من المتفوقين رياضيًا، بل يمكننا بأريحية أن نقول ثلاثة من سبعه أبطال رياضيين، سيتواجهون مع فريق آخر من بناتنا ذوات المستوى المشرف علميًا في مادة دراسية هامة كاللغة العربية، تحية لكم ولبناتنا المتنافسون غدًا في نهائي دوري اللغة العربية الأول بالمدرسة.

فضج أرض الطابور بالهتاف، فأكمل مدير المدرسة حديثة قائلًا:

- إنني أشكر جميع المدرسين والطلبة والطالبات على ذلك المستوى الاستثنائي لتلك السنة الدراسية الشيقة والممتعة، وأتمنى أن يكلل ذلك بفوز

مدرستنا بالمركز الأول في نتيجة الشهادة الإعدادية على مستوى الإدارة لهذا العام.

ثم صمت برهة وقال:

- وعلى مستوى المحافظة ولمَ لا؟

هنا ضجت المدرسة بالهتاف والتصفيق، فأضاف المدير قائلًا:

- من العام القادم إن شاء الله سيتم عمل ذلك الدوري في جميع الصفوف الدراسية، وليس في السنة الثالثة فقط.

ثم

أضاف قائلًا:

- لقد تلقيت تبرعًا قد جمعه الأبطال، ثمنًا لقمصانهم التي لعبوا بها مباراتهم النهائية، والتي أحضرت تلك الكأس الغالية لمدرستنا، بالإضافة لمبلغ آخر من المال تبرع به والد البطل مازن لتجهيز جوائز فاخرة للفريقين المتبارزيين في دوري اللغة العربية مع عمل لوحة بأسماء وصور الفريق الفائز ستوضع بجوار حجرة اللغة العربية، لوحة الفريق

الذي فاز بالدوري الأول بالمدرسة، سيكون شيئا تاريخيًا مميزًا.

ضج أرض الطابور بالهتاف، شعرت بأذني ينبضان دمًا من الخجل والفخر من موقف أبي، وكان فريق البنات أعينهن لم تزل معلقة بنا حيث كان يتم تكريمنا.

وبعد أن انتهى مدير المدرسة من ممازحتنا والسلام علينا وإعطائنا شهادات التقدير، غمز لي أحمد عصام وقال بلهجة القائد:

- فلنستعد لنخلد أسمائنا على جدران المدرسة، فهذا الدوري أهم شئ بالنسبة لنا في الفترة القادمة.

وبعد تلك الاحتفالية قال لي أحمد عصام إنه قد استقر على سؤال النحو الذي سيضعه في المواجهة النهائية لدوري اللغة العربية، وقال لي إن فريق البنات مستواهن الدراسي مرتفع بشدة، وإن الأسئلة التي سوف يضعونها لن تكون هينة بأي حال، ويجب علينا الاستعداد جيدًا.

كان أحمد قائدا حقيقيا مشغولا دائما بمصلحة الفريق ويدفعنا إلى تحقيق أقصى طموحاتنا، وكان

يوم النهائي يوما كرنفاليا احتفاليا بالمدرسة،، حيث استعدت المدرسة وعلقت شارات الاحتفال بختام السنة الدراسية، ومواجهة نهائي دوري اللغة العربية بين فريق فصلنا وفريق البنات.

كانت المواجهة قد تقرر لها أن تكون بالمدرج الكبير بالمدرسة، وليست كما جرت العادة بأحد الفصول، وذلك لإتاحة الفرصة لأكبر عدد من الطلبة للحضور، كما تم تصوير المواجهة وبثها على شاشة عملاقة في حوش المدرسة بحيث يشاهدها جميع الطلبة.

تجمع فريقانا في حوش المدرسة ثم صعدنا من على سلم الطوارئ المؤدي للمدرج، وكان الطلبة قد تراصوا في الجانب الآخر من المبنى، وذلك للدخول من الباب الرئيسي كما قرر لهم، بينما كانت الغالبية العظمى من الطلبة تجلس في حوش المدرسة لمشاهدة اللقاء المرتقب.

قابلتنا ميس زينب بابتسامتها حيث صعدنا وهي واقفة على الباب المغلق من خلفها ثم قالت:

- أخيرًا ياشباب، أنا أقف أمام صفوة الطلبة في المدرسة، حقيقةً كان مستواكم مبهرًا، وفي كل الأحوال أنتم أبطال في نظري وفي نظر مدرسيكم وزملائكم، فقد اجتزتم مرحلة كبيرة جدًّا وإني لكم لشاكرة.

و لما شاهدت نظرات التعجب في وجوهنا حيث قالت إحدى الفتيات والتي قد صففت شعرها بطريقة «كيرلي»:

- بل نحن ممتنون أشد الامتنان لحضرتك ياميس، لقد غيرتِ المدرسة، وغيرتِ نظرتنا لها.

أومأت برأسي إيجابًا، فقد كنت أنا أكثر شخص أعي تلك الحقيقة، لقد تغيرت نظرتي للمدرسة، بل لبلدي كلها بطريقة إيجابية جدًّا منذ أن عرفنا ميس زينب، والتي قالت:

- أما أنا فأريد أن أسر لكم سرًّا لا أحد يعرفه، إنه كان من أحد أحلامي وأنا في مثل عمركم أن اشترك في مسابقة كتلك التي أنتم بصدد الانتهاء منها الآن، ولكن مع الأسف لم تتح لي الفرصة، لم يكن هناك أحد متحمسًا من أساتذتي لمثل تلك المسابقات، حينما كنت في نفس فترتكم العمرية.

ثم شردت نظرتها قليلا وأضافت:

- أنتم الآن تحققون لي حلما من أحلامي.

ثم استعادت نظرة الجدية والابتسامة الهادئة ثم قالت:

- كما قلت أنتم الصفوة، والمنافسة بينكم منافسة شريفة، هذا وإن كان من المهم أن نعرف من هو الفريق البطل اليوم والذين ستخلد أسماؤهم على جدار المدرسة، فكذلك لن يكون الفريق الخاسر خاسرًا في نظري؛ فكلكم أبطال، ونحن جميعًا قد ربحنا بتلك المسابقة.

ثم بلهجة مازحة قالت:

- على قائدي كل فريق أن يعطوني أوراق الأسئلة، فلن نقضي اليوم كله في الكلام.

فانبرت فتاة ترتدي عوينات بلا إطار وناولت ميس زينب ورقة مطوية، وكذلك فعل أحمد عصام فتناولتهما ميس زينب ثم قالت:

- الآن سأدخل واكتب الأسئلة على السبورة بعد أن أقسمها جزئين، وسيجيب كل فريق منكم

في الجزء الخاص به، وتصحيح الإجابات سيكون علنياً أمام الجميع.

ثم ابتسمت ودخلت المدرج وأغلقت الباب خلفها، مرت ربع ساعة تقريباً قضيناها في الصمت، كنت أقرأ القرآن لأهدأ قليلا، ثم سمعنا صوت جلبة لدخول الطلبة من الجماهير لاتخاذ أماكنهم في المدرج، وهذا ما استنتجته.

بعد برهة فتحت ميس زينب الباب وطلبت منا الدخول فخانت مني نظرة إلى السبورة والتي كانت مغطاة بستارة كتلك التي في المسارح، حتى لا يرى أحد الأسئلة المكتوبة على السبورة.

وما إن دخلنا جميعنا حتى طلبت ميس زينب من الحضور الوقوف وتحية فريقينا المتباريين، فعلى صوت التصفيق من كل الحضور، بما فيهم مدير المدرسة والوكيل ومدرسو المدرسة الجالسون بالصف الأول والثاني بذلك المدرج الواسع والذي كانت المرة الأولى التي أدخله منذ جئت إلى تلك المدرسة.

جاء صوت ميس زينب صارمًا حيث قالت:

- الاختبار مدته عشرون دقيقة، كل طالب مختص بجزء يجيب عليه وحده، وهو مسئول عنه وبإمكان الفريق أيضًا أن يتشارك في إجابة الأسئلة إن وجدوا الوقت لذلك، أنتم من تديرون عملية الإجابة في خلال فترة العشرين دقيقة المتاحة، ولكن بمجرد أن ينتهي الوقت يجب أن يتوقف الفريقان عن الإجابة فورًا.

ثم تنهدت وأضافت:

- الآن سأزيح الستار ولتبدأوا الإجابة فورًا.

ثم تقدمت إلى الجانب الأيمن وشدت حبلًا فأزيحت الستارة عن الأسئلة، وكان السؤال الأول في النحو وهو عبارة عن جملة مطلوب إعرابها، والذي اختارها أحمد عصام مكتوبة في أول سؤال أمامنا:

السؤال الأول:

أعرب مايلي:

أكلت ديكًا وديكًا.

ابتسمت ميس زينب وقالت إن علينا أن نبدل أماكننا مع فريق البنات ففعلنا وسط ضحكاتنا على هذا الخطأ غير المقصود، وللمرة الثانية نقف أمام جملة السؤال الأول: أعرب مايلي:

«إن له أبًا شيخًا كبيرًا

وكفرس كان مربوطًا ثم تم فك سرجه انطلق أحمد عصام يجيب على السؤال ثم كتب على السبورة:

إن: حرف ناسخ.

واللام حرف جر، الهاء ضمير في محل جر متعلق بخبر إن.

أبًا: اسم إن منصوب وعلامة النصب الفتحة.

شيخًا: نعت ل «أبًا» منصوب.

كبيرًا: نعت ثان منصوب.

لم أكن قد بدأت إجابة أسئلة القصة والقراءة، كان أحمد عصام قد انتهى من إعراب هذ الآية القرآنية الصعبة، سرعة إجابته تلك أعطتني دفعة قوية لإنجاز مهمتي مثله على أكمل وجه. ثم أخذ

أحمد عصام يساعدنا إذا طلبنا عونه في شئ ما ويشاركنا الرأي.

بعد دقيقتين كنت قد انتهيت من إجابة أسئلة القراءة ونظرت لأحمد عصام فوجدته يبتسم بتلك الطريقة التي تعني أن خطته مازالت تعمل بكفاءة، انتهى أحمد معتصم من أسئلة النصوص فقمت بمراجعة إجابتي للمرة الثالثة وتوقفت ووضعت قلم السبورة الذي استخدمته في الإجابة جانبًا، ثم أعلن أحمد عصام، كقائد للفريق متوجها لميس زينب، أن فريقنا قد فرغ من إجابة الأسئلة.

وقف ثلاثتنا في وضع استعداد، بينما نظرت إلى الجانب الآخر حيث كان فريق البنات مازال يجيب الأسئلة، كان ما يزال أمامهم خمسة دقائق حتى ينتهي الوقت.

كانت الفتاة ذات العوينات هي المختصة بإجابة سؤال النحو، قرأت أنا ما كتبته على السبورة بخط رائع غبطتها عليه كثيرا:

أكل: فعل ماض مبني على السكون.

التاء ضمير متصل مبني على الضم في محل رفع فاعل.

ديكًا: مفعول به منصوب وعلامة نصبة الفتحة.

وفقط لم تكتب شئ آخر ورأيتها مازالت تنظر للجملة كمن يشعر بأن شيئًا ليس على مايرام.

بينما كادت الفتاتان الأخرتان أن ينتهيا من إجابة الأسئلة، وكانت الفتاة التي تصفف شعرها بطريقة «الكيرلي» هي المسؤلة عن إجابة أسئلة القصة والقراءة قد أجابت الأسئلة كأحسن ما يكون، وكذلك الفتاة الأخرى أجابت أسئلة النصوص ببراعة أيضًا.

كان الوقت يداهم الفتاة ذات العوينات ويتسرب إليها الشعور بالقلق رويدًا على الرغم من أدائها المتزن.

كان عيون الجميع معلقة على الفتاة، والتي كانت تنظر للجملة دون أن تحرك ساكنًا، وشرعت في الكتابة ثانية، وترددت لحظة ثم عادت تنظر للجملة مرة أخرى:

- باقي من الزمن دقيقة.

اضطربت الفتاة من صوت ميس زينب المنذر، ثم كالمرغم على فعل شئ لا يريده، كتبت ببطء، وهي تنظر لزميلتيها اللتين لم ينبسا ببنت شفة.

الواو: حرف عطف.

ديكًا: اسم معطوف في محل نصب.

قالت ميس زينب:

- انتهى الوقت، أريد من الحضور تحية كبيرة لفريقي البطلات أزهار عبد الحميد.

فضجت القاعة بالتصفيق، فابتسمت الفتاة ذات العوينات ابتسامة مكسورة قليلًا وهي تضع قلم السبورة جانبًا.

- ولاء ايمن.

نفس مستوى التصفيق، فأشارت للجمع الفتاة الثالثة:

- هبة مجدي.

احمرت وجنتا الفتاة التي صففت شعرها على طريقة «الكيرلي».

- وفريق الأبطال متعددو المواهب، أبطال جميع الميادين.

- أحمد عصام.

التصفيق كان كالانفجار، فعلا صوت ميس زينب قليلا ليبلغ صوتها الحضور:

- أحمد معتصم.

مازال التصفيق عاليًا:

- مازن أشرف.

ضجت الصالة بالهتاف وأطلق الرفاق صفارات الاحتفال، فهم كانوا لايزالون يذكرون الهدف الرائع الذي أحرزته في تلك المباراة النهائية، ولما خفتت الأصوات قالت ميس زينب متوجهة بحديثها للسيد مدير المدرسة والسادة المدرسين.

- أداء الأبطال كان مشرفًا بحق ياسيادة المدير.

فهز المدير رأسه تأييدًا لكلام ميس زينب التي أضافت:

- إنهم الصفوة ولي الشرف أنني مدرسة اللغة العربية للفصلين، وهو شئ يملؤني حبوراً وفخراً، ولو كان الأمر بيدي لوزعت الجوائز عليهم جميعا مناصفة، ولكن يجب أن يكون هناك فريق منتصر وآخر غير موفق.

ثم أضافت بعد تنهيدة:

- في جميع المسابقات الفائتة كنا نبدأ في تصحيح السؤال الأول فالتالي والتالي وهكذا، ولكن اسمح لي سيدي المدير أن أكسر ذلك التقليد وأترك تصحيح أسئلة النحو حتى انتهي من تصحيح الأسئلة الأخرى.

فأومأ لها المدير وقال إنه لا مشكلة هناك أن لم يعترض أحد الطلبة، ولما لم يعترض أحد شرعت ميس زينب في تصحيح أسئلة النصوص لفريق البنات والتي كانت أجابتهن نموذجية وحصلوا على درجة صحيحة وعلامة كاملة وسط تصفيق من الجمهور، ثم انتقلت لتصحيح سؤالنا والذي أجاب عنه أحمد معتصم كأفضل مايكون، وبالفعل تحصلنا على الدرجة كاملة نحن أيضًا، كان التصفيق تلك المرة أعلى كثيرًا وأكثر حدة.

فابتسمت ميس زينب.

ثم انتقلت إلى تصحيح سؤال القصة والقراءة الذي وضعته أنا لفريق البنات، احمرت وجنتا الفتاة التي تصفف شعرها بطريقة «كيرلي»، والتي أعطتها ميس زينب الدرجة كاملة، فصفقتُ للفتاة مع المصفقين والتي ابتسمت وكأنها تشعر بمن تخلص من عبء ثقيل، نظرت ميس زينب لإجابتي ثم وضعت العلامة الكاملة أمام الإجابة وسط تهليل وتصفيق أقراننا، ثم انتظرت هنيهة وقالت:

- ها نحن أولاء،

الفريقان متعادلان ومتساويان في القوة والمستوى الرفيع، إنني في منتهى السعادة بكم ياشباب، الآن قد وصلنا للجزئية الأصعب بالنسبة لكثير من الطلبة، ولكنها الأكثر تشويقًا وروعة، ولقد اختار الشباب الأسئلة بدقة بالغة، والفريقان يريدان أن يربحا المسابقة، فبالنسبة لفريق البنات اخترن آية قرآنية، ومن المعروف أن آيات القرآن من الصعب إعرابها، إنما لو صححنا إجابة البطل أحمد عصام.

ثم أشارت للإجابة وقرأتها وأضافت:

- إجابة أكثر من رائعة بلا خطأ واحد، العلامة الكاملة لفريق الأولاد.

فضجت القاعة بالتهليل والتصفيق، فقالت ميس زينب :

- العلامة الكاملة لفريق الأولاد، فهل سيكون لفريق البنات رأي آخر؟

وتوجهت إلى الجزء الخاص بهن، وقالت:

- السؤال في هذه المرة مختلف قليلًا، هناك تلاعب واضح بالألفاظ لا يفطن له الكثير من الطلبة، اختيار حاذق ليس في مستوى الطالب المتوسط ولا حتى الأعلى من المتوسط، وإنني لأحي واضعه في واقع الأمر.

ثم انتقلت لتفنيد الإجابة ثم توقفت عند كلمة ديكًا الأولى وقالت:

- حتى هنا الإجابة صحيحة لا لبس فيها، وإن الفتاة التي لها من اسمها نصيب أزهار.

فابتسمت الفتاة نفس الابتسامة المكسورة فأضافت ميس زينب:

- مازالت كعهدنا بها تبلي بلاء حسنًا، إنما لو أكملنا نجد أن بطلتنا قد وقعت في الفخ المحترف أو الكمين الذي قد نُصب لها بعناية.

ثم تنهدت بصوت مسموع وأضافت:

- إن الغالية أجابت أن الواو حرف عطف وديكا اسم معطوف منصوب، وهي إجابة ليست صحيحة لأن الإجابة الصحيحة هي:

- وديكًا، نعت منصوب، أي أن الفتى أكل ديكًا سمينا مليئا باللحم.

ثم بابتسامة عذبة:

- وبذلك يتحصل فريق البطلات على نصف الدرجة وتكون النتيجة النهائية هي فوز فريق الأولاد بثلاث نقاط، مقابل نقطتين ونصف لفريق البنات.

وهنا انهارت الفتاة أزهار بالبكاء، بينما انفجرت القاعة بالاحتفال، احتفلنا احتفالا بسيطا، ثم

توجهنا لمواساة الفتاة التي كانت تنظر لنا نظرات بغض، فتركناها وعدنا للاحتفال مرة أخرى.

أسماؤنا كانت مكتوبة في لوحة الشرف ورأيتها لأول مرة يوم اختبار نهاية العام، كان اليوم الأول في الاختبارات كالعادة في مادة اللغة العربية، وماإ فتحت ورقة الأسئلة حتى وجدت السؤال الأول:

التعبير: إجباري:

« تاريخ مصر يحكي عن ملحمة أسطورية خالدة، اكتب فيما لايقل عن عشرين سطراً، ما تمثله لك مصر وما شعرته حينما قرأت تلك العبارة.

ابتسمت وقررت أن اكتب قصة علاقتي الخاصة بمصر، اعتدلت في جلستي واختلطت المشاعر بداخلي، قررت لأول مرة ألا أنفذ تعليمات ميس زينب، وألا أبدأ موضوع تعبير تقليدي، كنت أود أن أنقل مشاعري إلى الورق فبدأت كتابة الموضوع:

إنهم يقولون إن من رأى ليس كمن سمع، ومن اقترب ليس كمن أخذ انطباعًا مسبقًا أكلاشيهيًّا زائفًا.

وما أن فتحت ورقة الأسئلة حتى وقعت عيناي على السؤال الأول : التعبير: إجباري:

لقد ولدت بإحدى الدول الخليجية...

كنت قد قررت أن أحكي قصتي في موضوع التعبير، أردت أن أعبر عن امتناني و حبي وتقديري واعتزازي واعتذاري لوطني الحبيب مصر.

(تمت)

ملحوظة: ربما قد يكون هناك جزء آخر من تلك الرواية، من يعلم؟!

***